مجموعة قصصية

أم كلثوم

كوكب الشرق

كيان للنشر والتوزيع

مجموعة مؤلفين

أم كلثوم

مجموعة قصصية

دار كيان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

مع كل يوم نعيشه تحدي جديد، وأحيانًا تقسو الأيام ويكون التحدي مع كل نفس نأخذه. المشاركة في المسابقات، مسابقات الكتابة أو غيرها، فتتدرب نفوسنا على قبول التحديات، ومع الوقت نتعلم مهارة التفاعل مع المكسب والخسارة، ونتعلم أن الحياة السليمة ما هي إلا مزيج بينهما.

تم إطلاق مسابقة أم كلثوم الأدبية في ١٧/٦/٢٠١٤ تحت إشراف مشروع الكُتاب المنسيون، كيان للنشر، ومكتبات ألف. استمرت المسابقة حتى ١/١/٢٠١٥ ثم تم مد مدة المسابقة حتى آخر شهر فبراير٢٠١٥.

تم إطلاق المسابقة باللغة العربية الفصحى كي نذكر الكُتاب والقراء بمدى جمال أصل اللغة، وكانت المسابقة متاحة لكل الجنسيات وليس فقط للدول العربية، وذلك لأننا أردنا أن نساهم في عولمة اللغة العربية.

تم نشر في حدود ٢٥ مقال بخصوص إطلاق المسابقة، وذلك في الصحف والمجلات الإلكترونية الآتية: البديل، راديو حريتنا، الوفد، مدونة أحمد طوسن، الوطن، اليوم السابع، الدستور، الفجر، الجورنال، مصرس، رؤية، مكة أون لاين، بوابة الأهرام، مصر العربية، أخبارك، متعدد نت، سمكة الامارات، مصر المحروسة، كلام أخبار، المصري اليوم، مجلة إنترناشيونال، وبعض المواقع الأجنبية: The Culture Trip, Democracy Chronicles, Christopher Fielden, Your Middle East.

تم اختيار لجنة تحكيم تحت إشراف «كيان» والتي تكونت من ثلاثة كتاب حاصلين على عدة جوائز محلية ودولية في الكتابة: سندس جمال الدين، سمر علي، محمود منسي.

تم اختيار ١٤ قصة من قبل ٤٢ قصة. قبل مرحلة التحكيم تم تجميع القصص بعد فصل اسم الكاتب عن القصة حتى نتمكن من تحقيق حيادية تامة، وكان المسئول عن تلك المهام هو الأستاذ أحمد محمد حسن، مدير خدمة الكُتاب بمشروع الكُتاب المنسيون.

يسعى مشروع الكُتاب المنسيون إلى تطوير الكتابة، ليس فقط من خلال مسابقاتنا الأدبية ولكن نعمل الآن على إطلاق مجلات إلكترونية متخصصة في مجالات مختلفة ونشجع الجميع للإنْضِمام إلينا لنعيد إحياء ثقافتنا معًا.

يرجى زيارة مواقعنا الحالية:

www.ForgottenWriters.com

www.HRrevolution.ME

www.TheAlexandErian.com

مواقع تحت التصميم:

www.SepiaToday.com

www.AlexandriaTheatre.com

أما بخصوص كتابنا الأعزاء الذين لم يحالفهم الحظ بالفوز في تلك المسابقة فسوف ننشر قصصهم إلكترونيًا بإذن الله على موقع الكُتاب المنسيون ونرسل إليهم

الرابط الخاص بقصصهم.

ننتظر قصصكم وإبداعاتكم بشغف في مسابقتنا القادمة إن شاء الله مع كيان للنشر في ٢٠١٦.

محمود منسي

مؤسس مسابقة أم كلثوم الأدبية

سلوا كؤوسًا طلاها

أحمد عبد المعطي علي

آمنت بالناس! وهذا كل ما تطلّبته الحكاية، فأنا فتاة فريق التسبيح بالكنيسة، وتعلمون معنى هذا، وحدة الفريق، ومرارة الحفظ، وقسوة التدريب مرة وثلاث وألف، وصحبة الأرغن والأورج والفلوت، والطبقة (أنا سوبرانو طبعًا)، وقراءة النوتة، وإرشادات قائد الكورال، أحببت هذا كله ولا شيء -مع ذلك- مثل أسرة الكنيسة وشعورك أنك تفعل ما تفعله من أجل مجد الرب.. أعتقد أن أعظم أساس يمكن أن يحظى به أحد في هذا المجال هو الأساس الديني؛ أنا ممتنة.

منذ سبع سنوات دبّر لي مودي (خطيبي السابق) موعدًا على إذاعة صوت الشباب، قال لي إن صوتي يستحق أن يُسمع منفردًا، فضحكت، فأخبرني جادًا أن صديقة والدته منذ المدرسة تعمل في الإذاعة عملاً إداريًا، ولكن كان في وسعها تقديم هذه الفرصة لنا، فالبرنامج للأصوات الجديدة. ترددتُ، ولكنه دفعني دفعًا (وأقصد دفعًا مجازيًا بطبيعة الحال) وقال إنه سيوصلني إلى مقر الإذاعة بنفسه (يجدر به هذا، فليس معي سيارة)، وسينتظر معي إلى أن يحين دوري، فوافقت. نسيت أن أقول عن نفسي إنني من مواليد برج القوس، أعتقد أن هذا يفرق.

ولكن لم يحدث شيئًا. أقصد انتظرث عائلتي موعدَ البث لسماع أدائي، وكنت جالسة معهم بهدوء القتلة، وما إن انتهت فترة البرنامج، قال أخي متهكمًا: «يبدوا أنهم أزالوا فقرتك في المونتاج»، قلت له: «لم أحضر»،

فقالت أمي في عجب: «ولكن حسبنا...»، قلت لها: «حضرنا ولكن كان المكان مزدحمًا حتى السلالم فانصرفنا أنا ومودي». لم يبدُ عليها أنها صدقتني، ولكنها قالت في هدوء: «أبوكِ كان ليفخر بك»، وأعرف قصدها، فأبي (وكان قد توفي قبل ذلك بسنة ونصف) كان منشدًا بارعًا في شبابه كما قالوا لي، وكان يؤمل بي أنا وأخي خيرًا منذ أن أشركنا منذ صغرنا في فريق التسبيح، وإن كان أخي لم يستمر طويلاً وأكملت أنا الطريق.

أو إلا قليلاً.. فإننا وصلنا وجرت الأمور في سلاسة، وكانت أستاذة سميحة (الوسيطة) في انتظارنا، ورحّبت بمودي كثيرًا وقالت إنها كانت في حفل خطبتنا، وأنا لا أتذكر هذا، وقالت إنها تأمل أن نعتبر تجربة اليوم هذه بمثابة هدية زفاف مستقبلية لنا، ثم قالت تعليقًا لم أستظرفه لمودي حول ماذا سيفعل لو أصابتني الشهرة! فابتسمت لها بأسنان صفراء (أقصد مجازًا بالتأكيد) ولم أعلّق، وقلت لمودي ونحن ننتظر على الأريكة الخارجية: «إنها سميجة.. لا سميحة»، فتضاحك، ثم لم ألبث إلا يسيرًا واندفعت خارجة قبل أن يحين دوري وقبل أن تنفرج شفتاي عن بنت شفة.

كان داخلي -وقتئذ- ظلام، ولكني أستطيع أن أقول قليلاً مما شعرت به خلال دقائق الانتظار، كانت بالونات الحوار المختلفة تتكاثر في ذهني، ظهرت بالونة تقول: «مَن أنتِ؟ وبمَ تمتازين من بين عشرات العشرات ممن

جلسوا قبلك وسيجلسون في نفس مكانك هذا بالذات ولأجل نفس البرنامج؟»، وظهرت بالونة أخرى كبيرة تقول: «الآلاف سيستمعون إليكِ وأنتِ لم تغنً منفردة من قبل قط» (أو على الأقل أمام حشد من الناس الغرباء)، وتحوّلت أمام ناظريَّ بالونة أكبر من سابقتها وجعلت تتضخم أكثر وأكثر أمامي وتسدّ الأفق وهي تقول: «أنتِ من دون الفريق لا شيء»، وشعرت بأن الرب الذي طالما كنت أقول بملء صوتي خلال إنشاد الكورس بأنه راعيَّ ومعيني، شعرت به يغادرني، وبأن حلقي جافًا.

أتذكر أنني عندما خرجت من دار الإذاعة لم أنتظر مودي، وكنا قد وصلنا معًا بسيارته، ولا أدري هل حاول اللحاق بي أم تُرى توقّع عودتي إليه، أو ربما ظنَّ أني احتجت إلى دخول الحمام، وما كان من أمر فإنني لم أعد ولم أنتظره بالأسفل عند سيارته، وسرت على قدمي كثيرًا، وكأنما السير -مجرد السير- لعشر دقائق، كان يكفي لإزالة كثير من الطبقات السوداء المتراكمة فوقي، لأنني عندها ندمت على تفريطي في الفرصة، ثم ضحكت، وكانت ضحكةً مكتومة تليق بفتاة مهذبة غلبها الضحك في وسط الشارع. لا أعرف كيف أصف الأمر، ولكن كأن أحدهم فتح «كرّاسة الصلاة» التي أملكها منذ الإعدادية، وكنت أكتب فيها أدعيتي وأضع علامة صح أمام ما تحقق منها، مرّت عيني على السطور في سعادة منقطعة النظير: دعوت أن أكون من العشرة الأوائل في

مدرستي (صَحْ)، وأن أصبح مترنمة أساسية (صحْ)، وأن أصيّف هذا العام في الإسكندرية (معجزة: أبي اشترى بيتًا هناك منذ خمس سنوات قبل وفاته)، وأن تُشفى جدتي (جاوزت الرابعة والسبعين منذ أشهر)، ثم أمرُّ على السطور، دعوت وكتبت يوم أن قُبلت في فريق التسبيح بصفة أساسية، أن أكون الأجمل صوتًا وأن يصبح لي معجبون كثر، يا ربي! بماذا كنت أفكّر؟ بالتأكيد ما خطر لي أن أكون مغنية، بل لم يغادر تفكيري سماءَ الكنيسة، ولكن لماذا ضحكت؟! لا إله إلا **الله!** لم أكن قد بدأت حتى، وقد تعثَّرت توًّا في أول الطريق.

لم يكن ثمة مجال كي أعود إلى الإذاعة مرة أخرى، أبدًا، وإن زادت رغبتي في السير على طريق لا أعرف عليه أحدًا، إي! هما عالَمان، أراهما كذلك.. الروح والمادة، والاتضاع والجشع، وصراحةً لم أنظر إلى ما فعلت وكأني بين حدّي الأسود والأبيض، أنا لست هكذا، وإنما كما قال أبونا وهو يعظنا: «الأطهارُ يَرون كلَّ شيءٍ طاهرًا».

وهنا خطر مرشدي على البال، أو صراحة مرة أخرى كنت أعرفه وأقرأ له -منذ سنوات قليلة- مقالاته في جريدة التحرير على الإنترنت، فلا أدري ماضيه، ولا أين كان من قبل، ولا كيف كانت بداية شرهي أنا إلى ما يكتبه، ولكن تكفي صورته المنشورة أعلى المقالات، فهو أولاً أصلع من المنتصف (لا أسخر منه، أقسم) وهذا الصلع يضفي عليه بساطة وطيبة محببتين للنفس مع

وجهه الدائريّ الحليق وعينيه الصافيتين، ولم أعرف عنه قط غير صفته المهنية: ناقد صحفي، وإن كان لا يخفى على أحد من متابعيه -وأنا منهم- عشقه للطرب القديم وحديثه الدافئ عن قامات الغناء الكبار، ولعله في أعماقه غير المكشوفة للناس كان فنانًا مثلهم أو شاعرًا أو موسيقيًا. لمسات الرب غامضة على أي حال، فإنني قلت إنه مَن سيسمعني، البديل المناسب تمامًا لإخفاق الإذاعة، وإن كنت أضع قدره التحكيمي (تعصُبًا له) فوقهم جميعًا، فلم أحسبه قط ينتمي إلى عصرنا الحديث هذا، وإنما إلى زمن ذهبي جميل أسمع عنه ولا أراه.

وذهبت بمفردي، وضللت الطريق رغم معرفتي بعنوان الجريدة، ولكن لم يكن هناك اسمًا يميز المبنى، فأخذت أقطع الشارع المذكور في العنوان من أوله إلى آخره، إلى أن تيقنت أن الرقم معي يشير إلى هذا المبنى الذي لا يحمل أي سمات تدل على أنه مقر الجريدة، فدخلت على وجل، وصادفت في هذه اللحظة شابًا أسمر اللون نازلاً من السلالم، فاستوقفته معتذرة لأستيقن منه إن كان هذا مقرّ الجريدة حقًا، فتوقف وكان جدّ لطيفًا (وإن كنت معتادة على لطف الرجال معي) وأجاب بنعم، في الطابق الأعلى. ثم قال لي إنه يعمل هناك، فهل أبحث عن عمل فيها؟ فضحكت وقلت: بل أريد لقاء الأستاذ طارق الشناوي.

ما زلت أعجب، فلولا تعثري بالشاب الأسمر لما قابلت

أستاذ طارق، ولا أعرف فيمَ كنت أفكر، فالأستاذ لا يملك مكتبًا في مقر الجريدة، فهو يرسل مقالاته، ويعمل في مكان آخر، وإن كنت صعدت إلى الجريدة وأخبرتهم برغبتي في مقابلته، لعدت خاوية الوفاض وتعثرت للمرة الثانية في الطريق.

قدّمني الشاب الأسمر له (ليس في ذلك الصباح وإنما قرب الغروب) ورحّب بي في مكتبه، وقال ضاحكًا بعد أن أحاط علمًا بما أردته: «هذا ليس برنامجًا للمسابقات!».

وكالعدوى ضحكت، وكان لطيفًا جدًا معي هو أيضًا (إنني غير المذنبة هنا)، وجرّ الحديث بعضه وهو يسألني عن ماضيَّ في الغناء، وبالتأكيد هنا حدثت الحادثة الغريبة، والتي كانت ستمضي مرور الكرام لولا ما قُدّر لها أن تكون، وضعَ أمامي ساعي مكتبه «سفن أب» في كوب زجاجي، وقال الأستاذ حينئذٍ: «تفضّلي»، وكانت كارثة، فلم أرد أن أشرب مياهًا غازية في هذا الوقت بالذات، لعلمي أنني سأجرّب صوتي أمامه بعد هنيهة، ولا أريد لصوتي أن يرتجع ويخذلني فجأة تحت أثر المياه الغازية ولو أقل القليل، ولم أجرؤ على الاعتذار له في أمر بسيط هكذا، لأنني كنت كالمأخوذة به ولم أفكر، فقربت الكأس من فمي، ووضعته أمامي مرة أخرى دون أن أشرب حقًا منه، وإنما تمثيل لم ينطلِ عليه (لحسن الحظ)، وجاءت اللحظة، وغنيت أمامه أغنية لعبد الوهاب (اخترتها عمدًا، فكم يشبه أستاذ

طارق في هيئته عبدَ الوهاب!)، وكان صامتًا طول الوقت وهو يستمع لي، ولم ينظر إليّ، وإنما أعطاني صلعته وأخذ في إطراقة طويلة استمرت إلى نهاية الأغنية، أو كادت، ونظر إليّ وبشَّ في وجهي وأنا أغني المقطع الأخير، ثم جلست، وجاملني كثيرًا، وغادرنا بعد أن سألني عن رقمي، وسألني عَرَضًا عن منطقتي، فأجبته: من مصر الجديدة، فضحك (ولعلّها الضحكة الثلاثمائة خلال وقت لقاءنا)، وقال لي: «اسم على مسمًى»، وبدوري ضحكت.

سلوا كؤوس الطلا، هل لامست فاها
واستخبروا الراحَ هل مسّت ثناياها
باتت على الروض تسقيني بصافيةٍ
لا للسلاف ولا للورد ريّاها
ما ضرَّ لو جعلت كأسي مراشفها
ولو سقتني بصافٍ من حميّاها

يا ربي! وكأنها جرت الأحداث بالأمس. في الصباح الباكر جدًا اتصل بي، وكنت نائمة، واستيقظت لأجده يقول لي في حماس: أنا في أول الطريق إلى مصر الجديدة، أين تسكنين بالضبط؟! ووصل وانتظرني أمام الباب الخارجي، فهرولت لأجده، وكان وجهه مضيئًا بابتسامة طيبة، وقد دفع إليّ بمظروف وهو يقول: هذه هدية متواضعة تعبّر عن إعجابي. إنها من وحيك.

يا ربي! إن الشعراء مجانين! مجانين ويخلقون من الرملة قصورًا فارهة، وعلى الأقل تيقنت أنه كان شاعرًا

في شبابه، وتيقنت ولمست بيدي مدى سخائه وسعة صلاته بالناس، فلولاه ما لُحّنت الأغنية وما ذهبت لتسجيلها في ساعات طويلة مرهقة كان معي فيها، يضبط لي الإيقاع، ويحدثني مشجعًا أو مقوّمًا، أو غاضبًا عندما أقول له إنهم لا يغنون هكذا هذه الأيام، أو ليست هذه الصيحة الرائجة، ليجيب حانقًا بأن لا أحد يملك الوصاية على الجمهور ليقول إنه يريد كذا أو كذا.

تلك حياة كاملة. وخرجت الأغنية إلى النور، على «ساوند كلاود»، وكتب مقالة فاتنة عني وعنها، وتخطّى رقم الاستماع إليها أكثر من ١٨٠ ألف مستمع خلال أيام قليلة من إطلاقها وحسب، وتداولت بين الناس، وعُرفتُ بينهم بالاسم، وأصبح لي معجبون كثر، (صَحّ، كما دعوتْ.. ها ها)، وغنيت بعد ذلك كثيرًا، وإن لم أؤثر غناء أغنية مثلما آثرت «سلوا كؤوس الطلا».

خارج إطار الصورة

إيناس محمد علي التركي

غرفة مغلقة على ماضيها وحكاياتها، غُرِفت فيما مضى بـ«غرفة المسافرين»، وتطور الاسم مع تطور الزمن وتقدمه فبات أهل البيت يسمونها «غرفة الضيوف» قبل أن يتحول اسمها ليستقر إلى «غرفة الصالون». ورغم تغير الاسم مع الزمن لم تختلف الغرفة كثيرًا، مع عبور كل الشموس التي تسللت من نافذتها ذات الستارة الدانتيل البيضاء، ومرور كل الليالي التي تسمعت للحكايات المتسربة من ضلفتي الشيش الخشبيتين، وقد تواطأت مع النجوم التي كانت تغمز في خبث. تفتح بابها المغلق فيتسلل لأنفك عبق البخورالعالق بأثاث الغرفة، وتجد أول ما يواجهك الحائط الكبير المليء بالصور المختلفة الأحجام، والتي تنوعت ألوان وأشكال براويزها. تجمدت الذكريات خلف زجاج البراويز الذي يلمع وتنعكس على سطحه خيالات وأطياف كل أشباح حكايات الماضي التي سكنت الغرفة، والذي يُعدّ هذا الجدار تاريخًا مُصوَّرًا لها.

صورة كبيرة باللونين الأبيض والأسود توسطت الجدار، وقد توزعت من حولها باقي الصور، وكأنها المركز الذي نمت وتفرعت منه مع مرور الزمن. كانت الصورة لجمهور معظمه من الرجال الذين ارتدوا ملابس رسمية كاملة، وهم جلوس ينصتون باهتمام، ويوجهون نظراتهم للأمام نحو النقطة نفسها التي لم تكن ظاهرة في الصورة. لم يكن ظاهرًا وسط الجمهور في بالصورة سوى اثنتين من الإناث، إحداهما كانت سيدة في مقتبل

الثلاثينيات من العمر وجوارها شابة، يبدو من التشابه الظاهر بينهما أنهما أم وابنتها التي كانت في نحو السادسة عشر من العمر. نظرة الأم موجهة للنقطة نفسها التي اجتمعت عندها نظرة باقي الرجال، لكن الابنة كانت تضع يديها على ركبتيها، وقد قبضت اليمنى على أطراف أصابع اليسرى ونظرتها مركزة عليهما بخجل. لو كانت الصورة ملونة لظهر أن وجنتيها قد اصطبغتا بالحُمرة، وأن العينين العسليتين قد توهَّجتا حتى باتتا بسطوع شمسين من الذهب.

يوم ولدت، ساقت الداية البُشرى للأب المنتظِر خارج غرفته زوجتَه بلهفة.

- بسم **الله** ما شاء **الله**! تبارك الخلاق! ربنا رزقك حورية من حور الجنة.

لحظتها قرر الأب إطلاق اسم «حورية» على المولودة الجديدة، ولحظتها بدأت غلالات البخور التي انطلقت مع تمتمات مبهمة للرُقية، علاقتها الوثيقة التي توطدت مع البيت بمرور الزمن. كانت حورية شاهقة البياض، ذات شعر أسود ينافس في كثافته ودُكْنته ما كانت تخبئه لها أيامها القادمة من شروخ للروح وخيبات للقلب لم تحمِها من قسوتها المبخرة، التي كانت تدور فوق رأسها سبع دورات يوميًا، بينما تنطلق من فم أمها الهمهمات.

- رقيتك واسترقيتك من كل عين سبع رقوات.

تستمر الهمهمات وحركة المبخرة الدائرية وسط

ضحكات حورية التي تستخف بطقس أمها اليومي، وتود بدلاً من ذلك أن تقوم لتشغيل أسطوانة من الأسطوانات التي ترقد في أغلفتها المربعة الكبيرة على الطاولة، جوار الجرامافون البني اللون ببوقه النحاسي الضخم.

يوم التُقِطَت تلك الصورة كان يومًا مشهودًا، فاصل بين ما قبله وما بعده. كانت حورية قد أتمّت من العمر ستة عشر عامًا، ولأول مرة بدلاً من الاستماع لأغانيها المفضلة عبر بوق الجرامافون، كانت ستحضر حفلاً لـ»الست»، بصحبة والدتها، لتستمع لها وهي تطرب جمهورها على المسرح. كان هذا الحفل بمثابة طقس تعبر من خلال حضوره عالم الطفولة إلى عالم الأنوثة الناضجة، لتودِّع جدائل شعرها بشرائطها البيضاء، وترتدي حذاءً له كعب لأول مرة. لحظة التقاط الصورة كانت اللحظة نفسها لعبور قلبها من ضفة الطفولة إلى الضفة الأخرى، بكل ما تحمله من سعادة، وبكل ما تحمله من ألم وكدر. كانت الست تشدو: «الأوَلة في الغرام والحب شبكوني»، وكانت الأولة للقلب الغض. نظرات متبادلة بينها وبين ذلك الجالس على مقعد لا تُظهِره حدود الصورة، بعدها أشرقت عيناها قبل أن تخفض نظرتيهما نحو يديها المنعقدتين على ركبتيها، ليحبس المصوِّر تلك النظرة داخل إطارها خلف الزجاج اللامع إلى الأبد.

انضمت الأسطوانة التي تحوي الأغنية إلى مجموعة

الأسطوانات بجوار الجرامافون في الغرفة التي زاد بها عبق البخور أكثر من ذي قبل. احتلت الأسطوانة الجديدة مكان ما قبلها، حتى لم تعد تُرفَع من الجرامافون، ولم تعد تستمع تقريبًا لسواها، كما انتقلت حركات المبخرة من أعلى رأس حورية لتوضع ثابتة على الأرض، وتخطو هي فوقها بقدميها، بأوامر من والدتها، التي صارت على قناعة تامة أن أحدهم قد صنع سحرًا خبيثًا لابنتها، التي ذبلت وغربت شمس نظراتها اللامعة وانطفأت. تروح وتغدو فوق المبخرة جيئة وذهابًا سبع مرات، كل خطوة لفك عقدة، بينما سُحب البخور تحتضن نظراتها السابحة في اللا شيء. تصنع أمها عروسًا من الورق تشك قلبها بالإبرة، وهي تواصل تمتماتها وهمهماتها الغامضة ثم تحرقها في البخور، وتواصل تحريك المبخرة فوق رأس حورية الذاهلة، التي عادت لتواصل الاستماع للأسطوانة مرة أخرى.

الأولة في الغرام والحب شبكوني بنظرة عين

والتانية بالامتثال والصبر أمروني.. وأجيبه منين؟!

والتالتة من غير معاد راحوا وفاتوني.. قولولي فين!

تصاعدت لوعة قلب الأم المحترق مع أدخنة البخور، وترسّبت المرارة في نفسها مع استقرار رماد العرائس الورقية المحترقة في قاع المبخرة، التي تتحرك خطوات ابنتها الوحيدة فوقها جيئة وذهابًا، دون أن تقطع أي خطوة في مشوار العلاج. أقنعها ابنها الأكبر أن الطبيب ربما يفلح في استعادة ما فشلت في استرداده

الرُقى والتمائم. حضر الطبيب ليجد مريضته جالسة في غرفة بجوار جرامافون تستمع للست.

الأولة في الغرام والحب شبكوني بنظرة عين قادت لهيبي

والتانية بالامتثال والصبر أمروني وأجيبه منين؟! احتار طبيبي

والتالتة من غير معاد راحوا وفاتوني.. قولولي فين سافر حبيبي!

ألقى نظرة سريعة على الغرفة، فلاحظ على الفور جدار الصور المواجه للباب، ولمح صورة المريضة التي تتوسط الجدار قبل أن تعاود نظرته الاستقرار على المريضة نفسها، وتتفحصها لوهلة، طلب بعدها من الجميع إخلاء الغرفة والانفراد بها قليلاً. فتحت أم حورية فمها لتحتجّ، قبل أن يحيط ابنها كتفها بذراعه ويصحبها معه للخارج برفق، ويغلق الباب. مضت فترة من الوقت بدت لمن خارج الغرفة دهرًا بأكمله، قبل أن يعاود الطبيب فتح الباب وهو يهز رأسه، معلنًا أنهم ليسوا بحاجة إلى خدماته، وأن خير مداوٍ لتلك الجالسة شبه الذاهلة في الغرفة هو الزمن، وكل ما يمكنهم فعله هو محاولة إخراجها من جلستها تلك لتشم الهواء النقيّ وتغير المنظر الذي يحيط بها قليلاً. خرج بعد أن رفض أن يقبض أجرًا مقابل خدماته، التي أصرّ أنه لم يقدمها فعلاً. أغلقوا الباب خلفه، وصوت الست ينساب من الباب الموارب للغرفة.

من يوم ما سافر حبيبي وأنا بداوي جروحي
أتاري في يوم وداعه ودَعت قلبي وروحي
طالِت عليّ الليالي وإنت يا روحي إنت
لا قلتلي فين مكانك ولا هترجعلي امتى

*****

غرفة مغلقة على ماضيها وحكاياتها، لم تتغير كثيرًا، غير أن البياضات التي تكسو الأثاث القديم قد تحول لونُها فبات مائلاً للصفرة، والجرامافون العتيق تآكل الطلاء البني عند أركانه حتى انكشف من تحته لون الخشب. أضيفت للصور على الجدار صور أخرى أحدث، لكنها لم تكن ملونة بالمعنى المفهوم للألوان، لم تكن زاهية، بل حالت ألوانها حتى باتت مائلة للسيبيا.

- حرنكش! يا حرنكش إنتي فين؟

تبتسم حورية التي تجلس بجوار الجرامافون تتصفح مجلات وصحفًا قديمة تجعدت أوراقها وتحولت للون الأصفر. كان أصغر أحفاد شقيقها الأكبر يناديها. فتح الباب ودخل راكضًا ليرتمي في حضنها وهو يضحك وهي تبادله الضحك. لم تنجب حورية، رغم أن الصورة المعلقة على الجدار خلفها تظهرها وقد ارتدت فستان الزفاف، وهي تجلس جوار عريسها في كوشة من الزهور التي أظهرتها الصورة بألوان ذابلة، كما ظهر بياض الفستان وقد مال للاصفرار بشدة، مثل البياضات التي تكسو كراسي الغرفة. اكتفت بتربية أبناء شقيقها ومن بعدهم أحفاده، الذين كانوا ينادونها حينًا ماما

حورية، وأحايين كثيرة حرنكش. كان الاسم بالفعل ملائمًا لها للغاية، حيث إنها كانت مثل تلك الفاكهة التي أطلقوا عليها اسمها على سبيل التدليل. كانت قد فقدت الكثير من ألقها، الذي جعل الداية يوم مولدها تُبسمل وتدَّعِي هبوط إحدى حوريات الجنة للأرض. شعرها الحالك السواد تخللته الكثير من الشعرات البيضاء حتى غلب بياضه سواده، وبدلاً من انسداله على أكتافها مغطيًا أذنيها في تهامس حميمي، بات معقوصًا للخلف طوال الوقت كاشفًا أكثر عن وجهها، الذي صار بياضه شاحبًا منطفئًا كنظرة عينيها التي لم تعد شمسها مشتعلة كتلك التي خلّدتها الصورة القديمة خلفها على الجدار، بل مالت نحو ألوان الغروب الهادئة. لكن أوراق الحرنكش الجافة الذابلة تخفي بين حناياها قلبًا ذهبيًا في استدارة، ولون شمس صغيرة تعوِّض تلك التي غربت في العينين. كذلك كانت تلك الثمرة بطعمها اللاذع بعض الشيء في حلاوته، تُخلِّف في الفم بذورًا صغيرة لا يمكن التخلص منها أو نسيانها بسهولة حتى بعد ابتلاع الثمرة بأكملها.

دخلت طفلة أكبر عمرًا من الصغير الجالس على ساقي حورية، بعد أن أزاح المجلات والصحف القديمة جانبًا.

- ماما حورية.. إنتي ليه دايمًا بتتفرجي على جرايد ومجلات قديمة ومش بتقري الجديدة؟

كان الصغار يعجبون من بعض عادات حورية، مثل اهتمامها الشديد بالصحف والمجلات القديمة الذي

شارف حد الهوس، وجعلها تشتري كل ما تستطيع الحصول عليه منها، ودفع ثمن غير قليل مقابل ذلك. كذلك كانوا يتساءلون عن عادتها التي استمرت معها حتى بعد رحيل والدتها. ظلت تشعل البخور في المبخرة القديمة وتخطو فوقها سبع خطوات التي حفرت أقدامها أثرها في وجه السجادة الصوفية المتآكلة. كانوا يضحكون وهم يتعجبون من إصرارها على الخطوات السبع التي لم تقُدها أبدًا لنهاية طريقها، الذي ظل دومًا مسدودًا.

لم يفهم أحد طوال هذه السنوات، حتى شقيقها، طبيعة الشيء الذي كانت تبحث عنه. لكنهم احترموا رغبتها واستمروا في إحضار كل ما تصل إليه أيديهم من صحف أو مجلات قديمة تساعدها في طقسها اليومي. تشعل البخور، تخطو واحد، اثنان، ثلاث خطوات حتى تتمهن سبعًا، ثم تجلس على كرسيها بجوار الجرامافون، كما اعتادت منذ الصغر لتستمع للأسطوانة نفسها، التي رفضت إبدالها هي والجرامافون بأسطوانات مدمجة حديثة. فقط كانت تتلف أسطوانة الجرامافون القديمة فتطلب منهم أخرى لتحل محلها، رغم شكواهم من صعوبة البحث وطلبهم المتكرر أن تتوقف عن الاستماع لها بكثرة حتى لا تتلف سريعًا. تنهي عدّ خطواتها السبع لتكمل العدّ مع كلمات الأغنية.. الأولة والتانية والتالتة، ثم تبحث عن شيء ما في الصفحات الصفراء القديمة.

لم يفهم أحد أن الفترة الوجيزة التي قادتها فيها خطواتها لتشارك ذلك الذي كان يومًا زوجها الطريق لم تزِدها إلا حيرة وتيهًا. كانت تبحث عن ذلك التورُّد وتلك الإشراقة التي احتبست وراء الزجاج على الجدار، ولم تستطع الفكاك لتصل إليها مرة أخرى. ظلت الصورة بمثابة البوصلة التي تحاول الاهتداء بها، علها تجد السعادة التي خبرتها يومها قبل أن تضل الطريق. حاولت الوصول لذلك الشعور مع من كان رفيق الدرب ساعتها، لكنها لم توفَّق، حتى فارقها هو وذهب كل منهما في طريق بعد أن مر الوقت دون أن تُرزَق بالذرية. ظلت بعدها تبحث عن ذلك الشعور وتقبض على تلك اللحظة التي خلّدتها الصورة، ولم تعرف طريقًا للبحث سوى ذلك الذي سلكته من قبل، عبر خطوات تكررت عبر السنوات دون كلل.

في ذلك اليوم الأخير، أحصت سبع خطوات، ثم أضافت لها الأولة والتانية والتالتة فأتمتهن عشرًا، رقمًا زوجيًا بدلاً من انقسام السبعة والثلاثة أرقامًا فردية. فتحت مجلة قديمة، تطالع صورًا عتيقة باللونين الأبيض والأسود. قلبت الصفحة ثم شهقت واحتبست أنفاسها. للحظة خاطفة أدارت رأسها لتنظر للصورة التي تتوسط الجدار خلفها قبل أن تحملق في الصورة التي في المجلة بين يديها مرة أخرى. كانت الصورة في المجلة بمثابة قطعة البازل المفقودة طوال تلك السنوات، تكمل الصورة المعلقة على الجدار وتظهر ما

كان مختفيًا خارج حدود اللقطة، الحبيسة داخل حدود ذلك البرواز. كان هناك شاب في مقتبل العشرينيات من عمره يرتدي ملابس رسمية، ويعدل المنديل الذي في جيبه بيدٍ بينما اليد الأخرى ارتفعت قليلاً في الهواء فوق ركبته بتردد، وكأنها لا تعرف تحديدًا ما تود أن تفعله. كانت تعلو شفتيه ابتسامة، انعكست بعمق في العينين اللتين كانتا مصوَّبتين لجهةٍ ما خارج حدود اللقطة، على عكس باقي الأعين التي كانت موجهة تجاه المسرح، الذي كانت تعتليه الست مغمضة العينين، ممسكة منديلها بيدٍ والأخرى مرفوعة في الهواء.

أراحت حورية يدها القابضة على المجلة فوق ركبتها. أغمضت عينيها للمرة الأخيرة وهي تستمع للصوت المنسال من الأسطوانة الدائرة.

الأولة نار وقادت والسبب نظرة
والتانية ما طلت غير الصبر والحسرة
والتالتة أنا اللي جرى لي عمره ما يجرى
سافر حبيبي...

الست.. المدينة

إسلام محمود محمد السيد

الأسئلة وحدها هي التحدي الأعظم.. فبقدر ما تملك من صحيحها، تنتظرك الإجابات الصحيحة.. أما إذا أسرفت في امتلاك علامات الاستفهام.. فلن تكون أنت صحيحًا بالمرة.. ستعيش كذلك وتموت كمثل.

عندما تسمع لأحد اليوم يعود ذلك الصوت الداخلي الذي بدأ رحلته معك ومعها منذ زمان مضى.. الأمر لم يصل بعد إلى حالة الهلاوس السمعية، والشعور بالاضطهاد من الآخرين. مجرد صوت لا يخبرك بأنك أفضل من أحد أو أسوأ من أحد لأنك تسمع الست، فقط يخبرك بأنك مختلف، يبدأ الأمر بغرور غبي حين تفسر «مختلف» هذه على أنها ميزة عن الآخرين، تلقي في طريق طفولتك وصباك وبدايات مراهقتك بالعديد من الأشياء وراء ظهرك، وربما الأشخاص كذلك، فهم لا يصلحون أن يرتبطون بشخص مختلف، مميز بأي علاقة.. سواء كانت زمالة أو صداقة أو حبًا.. سماع الست كان الحَكَم.

وحين تصبح البلادة وفقدان الإحساس طابعًا عامًا للغناء من حولك، تعود متخفّيًا لتشتري سماعة أذن حديثة وتختلي بالست وبنفسك معًا.. ليعود الزمان بها وبك أكثر.. وقد ربطث عقالاً على رأسها الصغير، تغني في هودج فخم مشدود على جمل أبيض، بتركيز محكم وبه مقعدان وثيران لها ولك.. وهو مغطى بأستار من الديباج، وستائر من قماش الدامسكو الفاخر والمزركش بالقصب اللامع، وهي مدهونة بألوان زاهية.. تخرج

الست في زينتها، يجاورنها أربع من الجواري الفاتنات، لو أطلّت واحدة منهن على بر مصر لما رأى ليل ظلم أو قهر أو استبداد، فما بالك بأربع؟ وما بالك بشمسهم الساطعة كعروس في موكب عظيم، شقوا به وسط المدينة بأنواع الملاعيب والبهلوانات والطبول، وسط تحركات فرقة الجنكية من اليهود والأرمن والأروام والأتراك! شيئًا فشيئًا أعود إلى حجمي أمام ذكراها، وأخرج لواذًا حتى من الحلم بها ومعها.

ويقف بي التصاغر عند آخر صفوف النظارة، ويستمر الحلم الذي بدأته وأنهاني، ثم أعلن العصيان وأتمرد على آخر الصفوف طمعًا في أولها، أشقها بسهولة في سنوات حفلاتها الأخيرة، وبصعوبة في سنوات حفلاتها الأولى. الحراك الاجتماعي كان محرمًا. وحين ينتهي بي المقام حلمًا فلا يكون بيني وبينها حجاب أظهر أنا أمامها.. أظهر.. ويختفي حولي كل شيء، أمسك بيدي اليمنى ريشة واليسرى حاضنة ألوانًا لأرسمها على مقلتي فلا أرى سواها.

كانت الست تقف على لوحة مقلتي ممسكةً بالمنديل بيدها اليمنى، مفتوحة اليد اليسرى ومتجهةً بها نحوي، وقد اختزلت السمِّيعة في شخصي. كانت تميل برأسها وجذعها الخلاب إلى الوراء، وقد تقدمت برجلها اليمنى إلى الأمام لتبين للرائي أنها لا تهاب الغناء أمامي.

الأحلام تضعك حيث لا تضعك الدنيا.

كانت ترتدي ثوبًا رائعًا من الحرير الوردي تخطّه طولاً

شرائط حمراء لامعة، وقد ربطت وسطها برباط من الحرير أيضًا داكن اللون، وبنفس تقسيمة الشرائط الحمراء في الثوب الذي فقد نصفه الأعلى من جهة الظهر، واكتفت صاحبته بربطه حول الرقبة من الخلف. كان العنق السامق يظهر بنصف دور في ملهاة جسدها ذات الفصول الثلاثة، الفصل الأول كان بلا منازع في شموخ الجسد الشامخ وكبريائه البادية في الوقفة، والرأس المرفوع اعتزازًا، يزينه عقد من اللؤلؤ الوردي الطبيعي، مليم ذهبي كان يتدلى من العقد على الجانب الأيمن المواجه لي من الجبهة المفارقة، بعض الشعر المستعار كان يزين جانبيَ وجهها الفتّان، تكاد تسمع صوتها بين الألوان التي استحالت لألحان.

لا يملك أحد سندًا تصويريًا للمفهوم الذي تمثله صورة الست في عيني، كما لا يملك أحد صكًا للفهم الأحادي، وإنما يأخذ الأمر شكلاً من التواطؤ الثقافي بين الكاتب وقارئه، كما هو بين الرسام ومشاهده، استحضار الألوان قد يذهب بك بعيدًا، حتى لتشم رائحتها عبر سطور وصفها. ثلاثية الأبعاد تنقلب معك عندما تقرأ، إلى تعددية الأبعاد، فتكاد تسمع الصوت وترى اللون وتلمس صاحبة الصورة لا الصورة نفسها فحسب.

قبل الست كانت الأنثى.. ثم معها ترتقي الأنثى عندي لتكون امرأة. ارتبطت وفي نفس الوقت بالفضاء الحَضَري المديني، فكنت أرى في أغانيها من حولي مدنًا تستفز ابن بطوطتي لأرتحل عبرها.. لأجوس أنحاءها

المنهكة والمنتهكة، لأصلي معها وبعد أن نفرغ نفعل ما نريد. تتداخل حدود الروح والجسد. كانت المرأة عندي فضاءً إشكاليًا ارتبط في العمق بنضج الوعي المبكر، لتتباين التجربة الحياتية بين الرفض والمعاداة والنفور والتضايق والكراهية والإنكار... وصولاً إلى الاعتراف المطلق.. المتأخر.

الست كالمدينة عندي.. فضاء يجسد أفقًا آخر لتشخيص التحولات العميقة الطارئة على الذات. أول آليات بلورة الدلالات والمعاني في نفسي البكر.. عالم مليء بالتجارب الإنسانية والمفارقات، يستطيع الإنسان إذا رصده بشيء من القبول أن يجد فيه عوالم لا حدَّ لها تشكل مفهومًا جديدًا للكينونة.. وموضوعًا شائعًا للرصد والاستيحاء والتشخيص والتأمل.. ورمزًا متعدد الإيحاءات والاستعارات والمعاني.. وفضاءً مفتوحًا على تجدد التأويل وإنتاج الدلالات.. تمامًا كنص لا نهائي، لا ينغلق أبدًا أمام مبدعه، ولا تنتهي امتداداته الأبستمولوجية أمام قارئه.. إلا أنني لم أعِ بعد ما أبدعت غناءً بكامله حتى الآن.

مقاومة الترهات واللا معقول لم تشغلني كثيرًا. كانت حقائق الست المدينة تتكشف لي حسيًا وروحيًا. النِسَب تختلف أحيانًا، بدأت لصالح الجسد فميًا، ثم لصالحه قضيبيًا، ثم لصالح الروح تدريجيًا.

النفور من قولبة المنظومة والنسق السائد زمكانيًا كان أنا. الست المدينة.. كنت أراها كما لم يرها أحد قبلي،

وكما لن يفعل أحد بعدي.. حانيةً كغيمة.. مكشوفة كسبورة.. غامضة كلغز.. مكنونة كلؤلؤة.. ممتنعة كنص.. كريمة كنخلة.. مترعة ككأس.. مُغوِية كالطريق.. واعدة كسماء.. واقعية كأرض. بقنديل عينيها أبصرت الدنيا قاطبةً، وفي ليل شعرها لاحت نجوم سعدي، استدارات ألحانها المذهلة لا تزال تدهشني، وانثناءات آهاتها الحانية تعاكس تجاويف شوقي، فنصير جسدًا واحدًا يتلقف اللحظة، يستوقفها العينان تتسلق الوسن في نظيرتها، تصعد فيهما حتى البياض شبقًا، تنتشي كشجرة لتقذف بالثمار، حجارة الإثارة لا تهم كثيرًا وقتها؛ هي تعطي بلا سؤال.

وكظل عنيد لا أتبعها، وأظل ظلاً لكيان من صنعها ولا أدري. وها أنا أرحل بلا نظرة وداع. لم أضمر المغادرة يومًا، وإلا كانت الست قد قرأتها في توثبات لا وعيي. كانت وليدة تراكمات لم يسطع وعيي ولا وعيي عليها صبرًا؛ اختزلتها زلات قلمي وفلتات لساني وشوارد ذهني. وتلك كانت اختصاصيات الست.. تفض بكارة غلالاتي العنينة، فأصير عاريًا حتى عورة العظام. تستنفدني حتى الثمالة، فأستوقفها متوسلاً أستبقي ثمالتي وخصوصيتي حين تختم وصلتها، وحين تتركها لي تفضلاً، لا أكاد أشعر حتى بقيمتها، وأعود متوسلاً ألا تستبقي شيئًا، فتلتفت إليَ بابتسامة مراوغة وتمضي، وهي لا تدري.. وأنا لا أدري.. أن الرحيل قدر اخترته أنا بأسبقية علم إلهي.

جنان السنين المترعة بالتجربة والخبرة والاختزان والاحتشاد ليوم كنت أظن أني غير ملاقيه، ولم يغن عني الظن من الواقع شيئًا، حتى إذا أدركت سرابي لم أجده شيئًا، ثم وجدت بحر مدينتي أمامي، فوفّاني حسابي نشوةً وحسرة.. ألما وأملاً.

الحضور القوي للست لا يجعلك تفكر في شيء وقتها، تظل تنظر إلى تلك الربة البشرية بانبهار، تكاد أن تسجد خشوعًا لجلالها، تمامًا كما نفعل أمام الإله. البعض يسجد خوفًا، والبعض يسجد رجاءً، وقليلون يسجدون حبًا. ويظل هو.. هو في كل حال المرهوب والمُرتجى والمحبوب بلا تثليث.

الست.. مفردة مشاكسة دالة على غموض حالة إنسانية لا تتكشف بواطنها، فما بالك بظاهرها الألِق! فرضية لم تنتج عن مقدمات، هي الفرضية الأولى.. العلة الأولى.. اسم «الست» يصفها كما يدركها الحدس. لا تملك أمامها إلا فض الاشتباك بين دوالها ومدلولاتها.. لا تستطيع إلا أن تعطل فاعلية الذاكرة التي تعتمد على الرصيد التاريخي، لتبدأ فاعلية المخيلة التي تصنع لها رصيدًا عاطفيًا مغايرًا.. يرتبط بها الرائي ارتباط السامع بالشاعر. «فكرة التوقع». فهي موزونة مُقفّاة، فإذا بدأت بصدرها كبيت من أبيات الشعر، فهم السامع عَجُزه -للمناسبة بينهما والمشاكلة- قبل أن ينطق به القائل أو قبل أن تتبدى له عيانًا. وإذا نطق به بعد، فكأنه لم يأتِ بشيء جديد لم يكن عند السامع من تبار. لتكون اللذة

فيها مطابقة لأفق القصيدة التي تغنيها مع أفق الانتظار لدى مريدها.

لم تكن الست مجرد فاعلية جمالية فقط، وإنما فاعلية دلالية أيضًا، تنتج عن القيمة الدالية المضافة، وفي مجال العلاقة بين اللغة والجسد.. بين اللغة والفكر. انعكاس للعلاقة بين ما تكونه الست من كلمات وما ينتج عن كينونتها تلك من تصورات ذهنية، حتى لكأن من يعرفها يحمدها لكونها هي.. فقط لذلك. ثم يأتي الشكر على غير ذلك بعدها، فهل سمعت أحدًا يمدح أحدًا بأنه فعل خيرًا جَمًّا في البشرية حين أصبح واحدًا منها؟!

تعود بعدها لحجمك، وينتهي بك المقام إلى خارج الصورة والمصوِّر.

ضائع أنا.. كسراج في نهار.. كمطر في سبخة.. كطعام عند غير ذي شهوة.. كزِفاف بكرٍ إلى عنِّين.. وكبئر معطلة وقصر مشيد أظل أنا بلا أنا.. كأني والدنيا من حولي صاخبة.. وحيد، كأني والحياة تنبض داخلي شهقًا وزفرًا.. ميت، لا ذقت الوصول يومًا لها.. ولا استمتعت بالطريق يومًا إليها.. ولا وجدت منها الصحبة، أعد نجوم الملل.. وأبحث بينها عن موطئ قدم لحلم قديم لم يجد أرضًا.. أودع اليباب لأحشو جروحي بملح البحر.. خرجت طوعًا من طابور الرجاء فيها لأقف وحدي في طابور الانتظار منها متوعدًا الألم والأمل معًا.. حتى لا يبقى لي ما أنتظره.

رماد عنادات الصبا، تزروه ريح الكهولة الحذرة.. سانحات هواجس خواطر الشوق إلى حبل سُري لا سبيل إلى وصله، إلى حلمة ثدي فارقت صريع الفطام المبكر. ألوان قوس قزح لا تقودك إلى كنوز الآفاق، تلاقي عند نهايتها صيرورة البدايات اللا نهائية.. وتظل أنت.. رمادي الكيان لا اللون.. تعبث بعصا جافة في ثناياك المحترقة صبرًا.. تفتش عن زمن رحلت فيه من أشعلتك.. من أبدلتك.. فلا تزيد الريح إلا طمعًا في هشيم تزروه بلا مقتدر يجمعك بيوم اللقاء المستحيل.

تمضي أنت وتبقى الأشياء من حولك كلها تنتظر أن يفرغ منها قاسٍ.. أن يشبع منها ناهم.. أن يمر عليها فضولي حتى.. ولكن بمُضِيّك لا يبقى للأشياء بقية؛ غواية الخواء تهلك من يظل بعدك، وحين تهلك أنت لا يكون بعد ولا قبل.

أهيم مع التوّاقين للرحيل نحوها بلا وجهة، العابرين على جسر من وهم، راكبي ظهر العباب ليلاً بلا سماء وبلا علامات وبلا نجوم أو هداية.. بلا ندم أذهب إلى الغد الماضي، لعلي أجدني هناك، أو أعرفني هناك، أو أنكرني هناك، أو أتركني هناك وأعود.. لا.. أنا لن أعود إليّ.. أنا لن أعود إليّ.. فتنة لا تُصيبنّ الذين رحلوا منا خاصةً.. تصيب الجميع.. فيكون الرحيل ولا يكون الراحلون.

ثمة من يظل مكانه.. يراوح بين أنحاء ذاكرة الأماكن في رأسك المتعب المسافر إلى هناك.. متواطئ هو مع

النوستالجيا عليك في قلق وجودي لا يحتمل قلبًا مؤمنًا بالرجوع.

ثمة من يوقظ رعشة الذاكرة الثاوية.. بوح بالمسكوت عنه في تلافيف الذِكر والذكرى.. ارتعاشات الحنين تحاكي الشوق واللهفة، ليقول الإنسان «جئت لألقي على الأرض نارًا، وكم أرجو أن تكون قد اشتعلت! أوتظنون أني جئت لألقي السلام على الأرض؟! أقول لكم لا، بل الخلاف»، وليسمع الإنسان بلا وسيط نشيج القول منها غناءً.. وارتجافات فعلها بلا فاعلية.

وكبومة ماتت قبل سنوات على سلك كهرباء عارٍ.. أقف شامخًا بلا نقطة دماء في أوردتي.. وبلا نبضة حياة في عروقي.. أتمسك بما قتلني بمقدار تمسكه بي.. الريح تنضو عني ريشي تباعًا فلا يبقى لي ما أداريه.. عاريًا أظل كما أتيت إلى هذه الدنيا وكما سأذهب عنها.. أو ربما أكون قد ذهبت بالفعل عندما تتحرك سفينتها بعيدًا عن الأرض الوطن.

حين تتمثل الموت تمثلاً ماديًا وأنت حي فلا ترى فيه أكثر من توقف للجسم عن أداء وظائفه الفسيولوجية لسبب طبيعي، أو لسبب مفاجئ يختم العمر.. فأنت مثل كثير من الناس.

وحين تتمثله تمثلاً روحيًا يتم فيه فك الارتباط بين الروح والجسد، ليكون ذلك مرحلة ضرورية للخلوص إلى مرحلة جديدة تتجلى فيها الحياة تجليًا آخر أرقى وأشرف.. فأنت مثل قليل من الناس.

أما حين تموت ماديًا وروحيًا لتدخل في مرحلة جديدة تتجلى فيها الحياة تجليًا مختلفًا.. فأنت أنا.

وبصرف النظر عن كون الموت صفة وجودية خُلقت ضد الحياة.. أو هو صفة وجودية مُضادةٌ للحياة.. أو هو كيفية مخلوقة في الحي.. أظل أنظر إلى الموت، لا على أنه مجرد عدم ومجرد اضمِحلال وتوقف.. فهذه الأعراض لا يمكن أن تكون أشياءً وجوديةً لأنها نقائض لأعراض أخرى وجودية ماثلة، وإنما باعتباره حياةً أخرى، هي نفسها التي أقف الآن على أعرافها.

رحلة طموح

سارة الليثي

استيقظت سمية من نومها كعادتها كل صباح على صوت أم كلثوم تشدو:

يا صباح الخير يا اللي معانا

الكروان غنى وصحانا

والشمس طالعة وضحاها

اعتادت منذ طفولتها أن تستيقظ كل صباح على ذلك الصوت الشجي منطلقًا من مذياع قهوة عم صابر المجاورة لمنزلهم، وكانت إذا ما طرأ طارئ على عم صابر ولم يفتح القهوة يومًا أو تأخر عن موعده، لا تستطيع الاستيقاظ بسهولة وتتعب أمها حتى توقظها لتذهب إلى المدرسة، مما اضطر أمها أن تضع لها مذياعًا خاصًا في غرفتها لتوقظها به كل صباح على أغنية أم كلثوم، وها هي الآن بعد أعوام عندما تريد أن تستيقظ في الصباح لا بد أن تضبط منبه هاتفها الجوال بأغنية أم كلثوم لتستطيع الاستيقاظ.

- اطفي الهباب ده!

صرخت بها عبير زميلتها في الغرفة في نُزُل الفتيات، وقطعت عليها حبل ذكرياتها، فأغلقت رنين المنبه، في البداية كانتا تتشجاران كثيرًا حول هذا الموضوع، خصوصًا أن سمية كانت تعدها إهانة لا تغتفر لصوت أم كلثوم، وعلى الرغم من أن عبير ذوقها لا يتعدّى أوكا وأورتيجا لكنها لم تكن تقصد أي إهانة لأي أحد، ولكن إصرار سمية على أن تضع تلك الأغنية نغمة للمنبه الذي يوقظها في السابعة صباحًا، بل واستمتاعها بالاستماع

إليها لمدة دقيقة كاملة حتى يتوقف المنبه تلقائيًا هو ما كان يثير أعصاب عبير، التي تود استكمال نومها بأمان دون إزعاج.

استغرق منهما وقتًا طويلاً حتى يستطيعا فهم بعضهما بعض، وتكوين صداقة بينهما، على الرغم من اختلاف أذواقهما، ولكن بالرغم من ذلك ظلت سمية على إصرارها بوضع تلك الأغنية نغمة منبهها الصباحي، ولكنها لم تعد تتشاجر مع عبير عندما تصيح بها طالبة منها إغلاق ذلك المنبه.

خرجت من غرفتها متوجهة إلى المطبخ، لترى ماذا تعد الفتيات للفطور وتساعدهن فيه.

- ماذا ستعددن اليوم للإفطار؟

- وماذا سنعد برأيك؟ كالمعتاد.. بيض وفول وجبن.

- هل توددن أي مساعدة؟

- وهل تنتظرين أن نعد لك الطعام ونأتي به إليك كالملكة؟!

- وماذا أفعل؟

- افعلي ما تستطيعين فعله، على الأقل بإمكانك غسل الصحون المتسخة وتنظيم السفرة.

ذهبت سمية لغسل الصحون في حوض المطبخ، وهي متألمة من طريقة كلام تلك الفتاة معها، ولكنها اعتادت على ذلك وأصبحت لا تشكو لأحد من أحد، ولماذا تشكو إذا كان لا أحد يسمعها من الأساس، كل منهن لديها مشكلاتها وإحباطاتها التي تفرغها على من حولها، وما

من إحدى منهن لديها الاستعداد لتتحمل هموم ومشكلات الأخرى، فما بها يكفيها بل ويفيض، إذا ما وجدت أحدًا تفيض له، ولكن لا أحد لهن.

انتهت الفتيات من إعداد الإفطار، وجلسن جميعًا يتناولن الإفطار معًا، وهن يتبادلن الحديث والنكات، وبعد أن انتهين من تناول الإفطار ذهبت كل منهن إلى عملها كالمعتاد، وتوجهت سمية إلى دار الأوبرا لتزاول تدريباتها المعتادة مع الكورس. لقد أتت إلى القاهرة منذ عامين على أمل أنها ستصبح مطربة مشهورة، ولكن للأسف مضى عامان كاملان وهي لا تزال عند نقطة البداية، لم تتحرك شبرًا واحدًا منها، كانت تظن أن صوتها سيفرش لها طريقًا من الورود لتسيره بمنتهى السهولة.

ولكنها اكتشفت الحقيقة المرة: لم يعد الصوت الشجيّ هو السبيل للغناء، بل أضحت هناك سبل عديدة لم يعد من ضمنها إطلاقًا روعة الصوت من عدمه، ولتصل إلى تلك الحقيقة صدمت مرات عديدة على أبواب المنتجين الموسيقيين والملحنين الذين كان سؤالهم دائمًا عن حجم التنازلات الأخلاقية التي هي على استعداد لتقديمها لهم، ليفتحوا لها أبواب المجد والشهرة، ولم يسألها أحد يومًا عن مدى روعة صوتها الذي تسعى لإيصاله للجمهور، بل لم يحاول أحد منهم أن يستمع إلى صوتها ولو مرة واحدة من الأساس.

كانت أحيانًا كثيرة يتسلل اليأس إلى نفسها وتتساءل

عن جدوى بقائها في القاهرة وتضحيتها بأهلها ورضاهم عنها لتجري وراء حلم كالسراب، فقد حاربت العالم كله لأجل ذلك الحلم، الذي كلما خيّل إليها أنها اقتربت منه تجده أبعد ما يكون عنها. لقد أحبت الغناء العربي الأصيل منذ نعومة أظافرها، كانت تمضي أغلب أوقاتها تستمع إلى غناء أم كلثوم وعبد الوهاب وفيروز ونجاة الصغيرة وفريد الأطرش وأسمهان وعبد الحليم حافظ وصباح، ولكن أم كلثوم بالنسبة إليها كانت القامة والهرم الذي لا تظن أنه سيتكرر يومًا ما.

وكانت عائلتها تجتمع يوميًا في الثانية عشرة مساءً جوار المذياع ليستمعوا إلى إحدى حفلات أم كلثوم على إذاعة الأغاني، ويسترجعوا معها الذكريات، كانت دائمًا ما تستمع من والديها عن ذكرياتهما مع حفلات أم كلثوم عندما كانا صغارًا، فقد حضرا عدة حفلات مع أهاليهما وقتها، وكانت عائلتاهما تسافر خصوصًا إلى القاهرة في الخميس الأول من كل شهر لحضور حفلة أم كلثوم، ونادرًا ما فاتهم إحدى حفلاتها، وكثيرًا ما اكتشفا أنهما حضرا نفس الحفلة وتضاحكا على ذلك، وظنا أنهما قد تلاقيا في صغرهما.

كانت تجلس بين والديها تستمع إلى أم كلثوم وإلى ذكرياتهما معها قبل أن تخلد إلى النوم، فكان آخر ما يطرق سمعها وأول ما تستيقظ على سماعه يوميًا هو صوت أم كلثوم، وكانت تتباهى بين زميلاتها في المدرسة بحبها لأم كلثوم، في الوقت الذي كانت لا

تطيق الواحدة منهن الجلوس ساعة كاملة وربما أكثر للاستماع إلى إحدى أغاني أم كلثوم، وكانت دائمًا تجد التشجيع من أهلها ومن معلميها عندما تتبارى في الحفلات المدرسية أو العائلية بتقليد أم كلثوم وغناء بعض من أغانيها.

ولكن عندما كبرت وصرّحت بحبها للغناء ورغبتها في امتهانه والالتحاق بمعهد الموسيقى العربية في القاهرة لدراسته، فوجئت برفض عارم وهجوم شديد، اكتشفت أن بين ليلة وضحاها أصبح الغناء حرامًا، لما إذن لم يكن حرامًا عندما كانوا يجتمعون يوميًا لسماع أغاني أم كلثوم في الإذاعة؟! لِمَ لم يكن حرامًا عندما كانوا يذهبون لحضور حفلات أم كلثوم مع أهاليهما ويسافرون خصوصًا ويقطعون المسافات الطويلة لحضورها؟! لمَ لمْ يكن حرامًا عندما كانوا يتباهون بجمال صوتها وحفظها لكل أغاني أم كلثوم؟!

لمَ لمْ يكن حرامًا عندما كانوا يطلبون منها في كل حفلة أو اجتماع عائلي أن تغني لهم مما غنت أم كلثوم؟! أفجأة أصبح الغناء حرامًا؟! وكيف يكون الغناء حرامًا وقد خلق **الله** الكون يغني؟! أليس **الله** هو من خلق الطيور بأصواتها المختلفة تشكّل لحنًا غنائيًا رائعًا؟! أليس صوت هدير المياه وارتطامها بالصخور وصوت الأمطار يعزف نوتة موسيقية ربانية رائعة؟! أوليس صوت الرياح وهي تداعب أغصان الشجر تشكل معزوفة لحنية غاية في الطرب؟! ألم يكن نبي **الله** داود

يترنّم بتسابيحه وابتهالاته لله بما عرف إلى الآن بمزامير داود، وكانت تجتمع الإنس والجن بل والحيوانات لتطرب من ترانيمه؟!

ألا يتبارى مقرِئو القرآن في إبراز أصواتهم والتغنّي بآيات **الله**؟! أولم يحثنا رسول **الله** (صلى **الله** عليه وسلم) على ذلك قائلاً في صحيح البخاري: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»؟! كيف بعد ذلك كله يُحرّمون الغناء ما لم يتفحّش بالقول أو يحض على حرام؟! وقد كان للغناء مكانة عالية في الدولة الإسلامية، وكان للمغنيين والموسيقيين والشعراء منزلة رفيعة عند خلفاء المسلمين في كل العهود، بل إن الموسيقى الحالية تعتمد في كثير منها على القواعد والنظريات التي وضعها علماء الإسلام في الموسيقى أمثال: الفارابي وزرياب وأبو الفرج الأصفهاني والكندي والموصلي.

أسئلة كثيرة لم تجد لها جوابًا شافيًا عندهم، فقط ما وجدته كان التعنُّت والرفض القاطع لامتهانها الغناء، وكأن الغناء سيجلب لهم العار ويفقدهم هيبتهم في المجتمع، ولأنها كانت لا تزال صغيرة حينها ولا تمتلك قرارها حاولت الوصول معهم إلى حل وسطي يرضيها ويرضيهم، فاقترحت عليهم دراسة الموسيقى بكلية التربية النوعية في محافظتهم بصعيد مصر، فوافقوا ظنًا منهم أن هذا قد يشبع حبها للموسيقى والغناء وأن عملها كمدرسة بعد التخرج سيلهيها عن حلمها في

الغناء، وقنعت هي مؤقتًا بهذا، ظنًا منها أنها خلال فترة دراستها بالكلية ستستطيع إقناعهم بحلمها عندما تصقل موهبتها بالدراسة، ويرون بأعينهم تفوقها.

ولكن آمالها تلك تحطمت على صخرة الواقع، فبعد تخرجها عرض عليها أحد أساتذتها السفر إلى القاهرة للتدريب في الأوبرا لتصقل موهبتها وتجد طريقًا لها، وكادت أن تطير من الفرح عندما عرض عليها ذلك، ولكن عندما أخبرت والديها بذلك اسودّت الدنيا في وجهها، فلقد خيروها بينهم وبين المُضيّ قدمًا في تحقيق حلمها، ولم تشفع لها دموعها وتوسلاتها، فلم يكن أمامها إلا أن تختار أن تسير وحدها على الطريق دون دعم أو دعوة طيبة تذلل لها الصعاب.

حتى أن حبيبها الذي وهبته قلبها لم يستطع تفهمها ولم يُقدّر موهبتها ولم يمنحها حقها في الحلم، فقد خيرها هو أيضًا ما بين حلمها وزواجهما، لقد رأى أن وقوفها على المسرح للغناء انتقاصًا لرجولته وإهانةً لكرامته، أخبرها أنه لم يكن يناقشها من قبل ظنًا منه أنها ستنضج يومًا ما وتتخلى عن تلك الأحلام الطفولية، وتعي أن هناك مسؤوليات من المنتظر منها القيام بها، وآلمها أنها أحبت يومًا ما رجلاً أنانيًا بقدره، لا يرى فيها سوى تابعة له تحقق له ما يصبو إليه من أحلام، وليس من حقها أن تحلم لنفسها بشيء، ويكفيها فخرًا أن يكون راضيًا عنها.

لم يشجعها أحد البتة في تحقيق أحلامها، حتى

صديقاتها، رغم تعاطفهن معها لكنهن حاولن إثناءها كثيرًا عن المضيَ في طريق حلمها، خوفًا منهن عليها من تبعات ذلك الطريق وتخلي أهلها عنها، إلا أنها أصرّت على المضيَ في طريقها وضحّت في سبيله بكل غالٍ ونفيس، وظنت أنها عندما تصل إلى هدفها دون أن تضحي بأخلاقها وقيمها ستثبت لأهلها أنها كانت على حق وستجعلهم فخورين بها، ولكن طال الطريق بها ولم تصل لشيء بعد، حتى بدأ اليأس يدب في قلبها.

وكانت تشتاق كثيرًا إلى حضن أمها لترتمي فيه وتشكو لها من قسوة الحياة، كانت كلما رأت رجلاً أو امرأة مسنين في الشارع تذكرت والديها، وسارعت بمساعدتهما في عبور الشارع أو حمل ما يثقلان بحمله طالبة منهما دعوة طيبة تهون عليها غربتها عن والديها، وآملة في نفسها أن يكون ذلك سببًا في تليين قلب والديها عليها يومًا ما.

وذات يوم -ربما كان ذلك يوم حظها- كانت في الأوبرا كالعادة تغني مع الكورس في إحدى الحفلات، وبعد انتهاء اليوم، لم تكن لديها الرغبة في العودة إلى نزل الفتيات في ذلك الوقت، فدخلت إحدى القاعات وظنت نفسها وحدها لا يسمعها أحد، فوقفت تغني باندماج إحدى أغاني أم كلثوم الرائعة:

لسه فاكر قلبي يديلك أمان
ولا فاكر كلمة هتعيد اللي كان
ولا نظرة توصل الشوق والحنان

وبعد أن أنهت الأغنية وجدت من يصفق لها بحرارة، فنظرت نحوه فوجدته الملحن والمغني الشهير محمد يوسف، ولم تدرِ ماذا تفعل، وتسمّرت مكانها، حتى اقترب منها يسلم عليها محييًا ومعلنًا عن إعجابه الشديد وانبهاره بصوتها، سألها: ما اسمك؟

- سمية محمد محمود.

- سومة؟

أومأت برأسها في خجل، فقد كان ذاك اسم الدلع الذي يطلقه عليها والديها تيمّنًا بأم كلثوم، وقد سمياها سمية حتى تُنادى بذلك الاسم، فقد كان من الصعب أن يسمياها أم كلثوم في ذلك العصر، كان سيبدو اسمًا كبيرًا لطفلة صغيرة، فاختارا لها اسم سمية حتى ينادينها بسومة.

- لديك صوت رائع.

- لا، أنا كنت فقط...

- ششششششش، فقط استمعي إليّ، لقد غنيتي أفضل مني.

- أنت تمزح!

- لا، أنا لا أمزح فيما يتعلق بالغناء والموسيقى، إذن أنت تريدين أن تصبحي مطربة؟

- من قال ذلك؟

- أنتِ، لقد كنت تنظرين إلى صورة أم كلثوم المعلقة على الجدار وأنت تغنين أغنيتها، كالطفل الذي يتطلع إلى القمر ويريد لمسه، حتى أنك لم تعِ بوجودي، هذه

النظرة أخبرتني كل شيء.

- كل الناس تتطلع إلى القمر، ما المميز في ذلك؟

- البداية.. أي فنان يحوز شهرة عالمية لا بد أن يتمتع بما يميزه ولا تأتي شهرته من التقليد. أنتِ تملكين ذلك الشيء المميز، ولكنك تحتاجين إلى قوة دافعة.

- ما الذي سمعته في صوتي ولم يسمعه الآخرون؟! لقد حاولت جاهدة ولكن أحدًا لم يعطني فرصة واحدة.

- لذلك أنا هنا، لأعطيك تلك الفرصة.

راجعت خيباتها المتلاحقة في ذهنها، فبادرته قائلة بنظرة شك: أنا لست من نوعية الفتيات التي تظنها.

ضحك قائلاً: أنا لا أقول مثل هذا الكلام لفتيات من تلك النوعية.

- آسفة، ولكن كما يقول المثل«اللي اتلسع من الشوربة ينفخ في الزبادي».

- إذًن أراكِ في الغد.

وأعطاها بطاقته، وسلم عليها راحلاً، لم تكن تعي ما حولها من الفرحة، لم تكن تعلم إذا ما كانت تحلم أم أن ما حدث حقيقة، ظلت تنظر طويلاً للبطاقة وهي لا تصدق نفسها، لم تنَم ليلتها، وفي الصباح الباكر توجهت إلى مكتبه، كان جادًا بشأنها، وجدته قد قرر أن يطلقها كمغنية في احتفالات رأس السنة الجديدة، كان قد نظم لها جدولاً حافلاً للتدريب طوال الشهر المتبقي، واختار لها افضل الكلمات ووضع لها أرقى الألحان، أمضت شهرًا حافلاً في التدريبات والتسجيلات وهي لا تزال غير

مصدقة لما يحدث.

حتى بدأت أخبار انطلاقها تستحوذ على معظم الأخبار الفنية، وإعلانات ألبومها الغنائي تغرق شاشات التلفاز ومحطات الإذاعة، والكثيرون ينتظرون سماعها بفارغ الصبر، ووصلت أخبارها لأهلها، فوجئوا بها وفوجئوا أنها لا زالت ابنتهم التي ربوها، لم تتنازل عن أخلاقها وقيمها لتصل إلى ما هي عليه، ما زالت ببراءتها تلك تكسو وجهها، لم يخدش حياءها شيء، وقبل أول حفل لها فوجئوا بالملحن محمد يوسف يطرق بابهم راجيًا منهم حضور حفلها الأول، فقد كان يعلم جيدًا أن ذلك سيعني لها الكثير، ويعلم أيضًا أن كبرياء الأب والأم سيمنعهما من اتخاذ تلك الخطوة وحدهما دون أن يخبرهما أحد كم تشتاق إليهما ابنتهما وكم تحتاجهما إلى جوارها.

وقفت أمام المرآة تستعد لحفلها الأول، ارتدت أبهى فستان، وعلى الرغم من سعادتها البالغة لكنها كانت تغالب دموعها، فكم كانت تتمنى وجود والديها معها في ذلك اليوم! حاولت التماسك لتصعد إلى المسرح وتغني لجمهورها الذي انتظرها بفارغ الصبر، وما أن بدأت فقرتها واعتلت المسرح حتى فوجئت بوالديها يجلسان في مقدمة الصفوف وأعينهما تغرورق بالدموع وهما يصفقان لها بحرارة، لتجد دموعها تنساب رغمًا عنها، وتعلن أن أغانيها اليوم مُهداة إلى والديها فقط اللذين كان لهما الفضل الأكبر في حبها للغناء الراقي والموسيقى، ولولاهما لما وقفت يومًا على ذاك المسرح.

رجاء

بسمة فوزي محمد

سندريللا المصرية تقشر البصل، تقطع الطماطم وتشهق على الملوخية. لم تكن يومًا من الأغنياء ولم يمت أبوها ويتركها تصارع الدنيا وحدها، بل تركها بكامل إرادته من سنين عديدة لا تذكر الآن عددها، ولكنها تذكر اليوم جيدًا وكأنه الأمس. يومها ارتدت جلبابًا جديدًا. بريق عينيها البنيتين ملأ السماء ضوءًا. لم تتوقع النهاية المأساوية لليوم. حياتها ستتغير إلى نهايتها. كانت في التاسعة من عمرها، وبكل سذاجة ركبت القطار وهنأت نفسها بيوم مختلف، ظنت أنها ذاهبة إلى مكان مميز مكافأة لها لأنها ساعدت أمها بكل أعمال البيت وأتمتها على أكمل وجه، ويا ليتها ما أتمتها! ستعود آخر اليوم لتحكي وتغيظ جميع إخوتها. سمعت همسات أبيها وعرفت أنهما ذاهبان إلى القاهرة. لم تذهب إلى القاهرة من قبل، ولكنها تعرف أن القاهرة أرض الأحلام، حيث البيوت الجميلة والأزياء الفاخرة.

ركبت القطار وابتسامة جميلة تُظهِر جميع أسنانها. بدأت تسأل أباها عن وجهتهما ولكنه لم يجِبها واكتفى بالنظر إلى نافذة القطار، ولم يثنها وجومه عن السؤال لمرات عديدة وفي النهاية أدركت بعقلها الصغير أنه يريد أن يفاجئها. علا صوت القطار وبدأت الأشجار تعدو لتسابق بعضها بعضًا وتسابق القطار. شجرة وراء أخرى. غنَت رجاء لنفسها:

«أنا لن أعودَ إليك مهما استَرحَمَتْ دقاتُ قلبي
أنتَ الذي بدأ الملالة والصُدودَ وخانَ حُبّي

فإذا دعوتَ اليومَ قلبي للتصافي لا لن يُلبِّي»

لم تفهم ماذا تعني أم كلثوم بهذا، ولكنها استمرت في الغناء إلى أن نهرها والدها، فسكتت. سمعت على راديو الجيران أن أم كلثوم ليست من القاهرة وأنها أتت من محافظة ما. يمكن أن يحالفها الحظ وتصبح مثلها، تغني فيسمعها الجميع، يصفق لها الجميع، تشتري ما يحلو لها من طعام وثياب أنيقة كالتي تسمع أن أم كلثوم ترتديها.. دائمًا ما كانت تسأل أمها لماذا لا يذهبون إلى القاهرة فينعمون بحياة جميلة، يحصلون على بيت أكبر وطعام أكثر! لا نملك النقود، لم تفهم رجاء يومًا أهمية تلك الأوراق الصغيرة التي يجلبها أبوها كل فترة كبيرة إلى البيت وتسعد أمها برؤيتها. تتجه الآن إلى القاهرة. ربما يحقق أبوها أمنيتها ويشتري بيتًا في القاهرة.

توقف القطار وتوقفت الأشجار وسبق القطار جميع الأشجار الراكضة معهما إلى القاهرة. فاجأتها زحمة المكان. انطلقت مع أبيها بعينين يملؤهما الفضول وقدمين مسرعتين تحاولان أن تلحقا به، ورقبة تعبت من كثرة الالتفاف. دخل أبوها الجامع الكبير وعيناه حائرتان كأنه لا يدري ما يفعل، أيطلب الغفران من معصية سيُقدِم على فعلها؟! نظر إلى رجاء لآخر مرة ثم أخذها من يدها واستمرا في المشي إلى ما لا نهاية. إلى الآن لا تعرف رجاء كم عدد الساعات التي قضتها في المشي إلى مثواها الأخير، الزمالك، حيث الفيلا الكبيرة التي لن يكون لها نصيب منها إلا بلاطات صغيرة تحت

السلم الداخلي.

رائحة الأشجار كانت أقوى من أي رائحة أخرى، هامت عشقًا بها، وهيَّأت نفسها على اللعب طوال اليوم وسط الأشجار. أحكَم الأب قبضته على يدها الصغيرة لشعوره برغبتها في الجري، وتحدث إليها بصوت مرتفع يحذرها من الهروب. انفتح باب الفيلا وانتظرت هي وأبوها قليلاً ثم جاءت «الهانم» كما خاطبها أبوها.. سيدة في الثلاثين ذات أنف غليظ وعين واسعة وشعرات بيضاء قليلة تزيد من الوقار.. لم تُسلِّم عليهما ولكنها أعطت والد رجاء أوراقًا قليلة ووعدته بالمزيد إذا كانت راضية عن أداء رجاء، ولم تفهم رجاء. وقف والدها فجأة فوقفت رجاء، ولكنه أشار لها بالجلوس وخرج من باب الفيلا، ولم ترَه مرة أخرى، لم يودعها ولم ينظر إليها. ابتسمت الهانم ابتسامة هادئة وأشارت لرجاء أن تتبعها، وبنبرات هادئة أخذت تشرح لرجاء طبيعة عملها في مساعدة كل طاقم المنزل من طباخين وسفرجية.

مرت السنون واستمرت رجاء في الخدمة، على أمل أن يأتي أبوها في يوم من الأيام، إلى أن جاء اليوم الذي ملأ فيه اليأس قلبها. بمرور الزمن وضح ما كان غامضًا، لقد باعها والدها لنازك هانم. لماذا باعها هي بالتحديد؟! سنوات من مسح الأرضية وتقشير الثوم، سنوات من الذل والبرد على السلم الداخلي. دائمًا ما تمنَّت تبادل الأدوار. ماذا لو كانت أمها صاحبة الفيلا وهي مكان إحدى بنتيَ نازك هانم؟ تلاحقها نظرات نازك هانم

المتعالية بعينين تنظران إلى السماء وأنف مقوّس تجاه الأرض كأنه يشم رائحة كريهة، وعبارتها الدائمة «صنف نمرود» ولكنها لا تختلف عنهم، ورقات قليلة تفصل بينها وبينهم. تلمحها دائمًا نازك هانم وهي تنظر إلى فساتين البنتين وتقول لها «ليست لأمثالك». حاولت منال وحكمت بنتا نازك هانم في سنوات عمرهما الأولى اللعب معها، ولكن دائمًا ما كانت نازك هانم تحذرهما تحذيرًا من وباء تخشى أن ينتشر في الأسرة. تحذر البنتين وتصفع رجاء. للصبر حدود.

يا لسذاجتها!

«هل رأى الحب سكارى مثلنا.. كم بنينا من خيال حولنا

ومشينا في طريق مقمر.. تثب الفرحة فيه قبلنا

وضحكنا ضحك طفلين معًا.. وعدونا فسبقنا ظلنا»

اختفت تمامًا طفلة القطار بأحلامها، أكانت والدتها تعلم؟ ماذا عن إخوتها؟ أتأويهم فلل أخرى؟ الماضي لن يعود والحاضر لن يتغير.

«لماذا يحترمون الهانم ويصبّون عليها اللعنات؟ لماذا يخشون الهانم؟ لماذا لا يقف بائع الخضار مُرحّبًا بها كما يفعل عندما يزورهم زياراته القليلة لتحصيل نقوده من الهانم؟ رجاء لم تأخذ يومًا أجرًا، أخذه والدها مقدمًا من سنين طويلة. لم تعرف النقود طريقها إليها ولم تحصل أبدًا على ملابس جديدة. دائرة من الملل لا تنكسر ودموع لا تنتهي. عجرفة نازك هانم بلا حدود والغضب

بداخلها يفور كبركان.

- رجاء.

قطع صوت نازك هانم حبل أفكار رجاء. اليوم مهم في حياتهم، الكل شعلة من النشاط. ستذهب العائلة مع خطيب الابنة الكبرى إلى حفل الست، ويا له من يوم عظيم! فعلى ثراء الأسرة الفاحش فهذه هي المرة الأولى التي يحضرون فيها حفلة الست. منذ أحضر شكري بيه خطيب حكمت التذاكر والبيت كخلية نحل لا تتوقف، حملات شراء مستمرة قضت على ما في الأسواق من ملابس. الفستان الأحمر لحكمت ثم شراء فستان أخضر لحكمت. احتارت الأسرة في اختيار ملابسها، وكأنها المرة الأولى التي يرتدون فيها الثياب. الأحذية أيضًا لم تسلم من التفكير المتأنّي. لم تفهم رجاء أسباب الحيرة؛ كل الفساتين لا ينقصها الجمال والأناقة. إنما للصبر حدود! إنه اليوم الموعود الذي سيأتي فيه شكري بيه في حدود السادسة، ليصطحبهن بسيارته. ستذهب الأم والبنتان ولن يذهب البيه الكبير، فلا مزاج له للحفلات، وعلى رجاء أن تحضر الغداء وتحضر فستان حكمت من عند المكوجي. منذ استيقاظها لم تترك حكمت التذاكر، تأخذها من على ترابيزة السفرة، تنظر إليها في هيام وتضعها مرة أخرى وكأنها لا تصدق نفسها. استقرت أخيرًا على فستان أزرق غامق من الساتان وحذاء فضي.

وفي نحو الثانية عشر أخذت الأم بنتيها إلى الكوافير

ليضيفن اللمسات الأخيرة لأسبوع بأكمله من الاستعدادات، وأعطت نازك هانم لرجاء كالمعتاد قائمة بالتعليمات، وعلى رأس الأولويات إحضار الفستان، وحذّرتها من العبث به، ولسان حالها يقول «ثمن الفستان يشتريك أنتِ وأسرتك». ذهبت الهانم إلى الكوافير وذهبت رجاء إلى المكوجي لإحضار آخر فستان، فستان حكمت هانم، الذي حاز الجانب الأكبر من الاهتمام، الفستان الأزرق الغامق الذي نال الرضا باختيار حكمت له لارتدائه لحفل أم كلثوم. صعدت رجاء بالفستان ودخلت حجرة حكمت ووضعت الفستان على السرير، كما أمرتها نازك هانم، وفتحت العلبة لتلقي على الفستان نظرة أخيرة، وتتمنى أن تعرف كيف يبدو هذا الفستان عليها. نظرت إلى الساعة وأدركت أن اليوم الخميس وأن الكوافير بالتأكيد مزدحم، وحمدت الله على أن غرفة حكمت شباكها يطل على مدخل الفيلا الرئيسي. أغلقت الغرفة بالمفتاح وبدأت في ارتداء الفستان. نظرت إلى المرآة وتخيلت نظرات الحقد على وجوههم. لقد خُلِق الفستان من أجلها. أدركت أنه ينقصه عقد، ورأت العقد على التسريحة، حيث وضعته حكمت، ورأت الحذاء والشنطة. رأت نفسها للمرة الأولى كالهوانم التي تخدمهن، شعرها لا يحتاج إلى كوافير وبشرتها بيضاء كالثلج. دقائق قليلة أمام المرآة كانت كفيلة بأن تقنعها. وكأن القدر يساعدها؛ وجدت الدرج مفتوحًا ونقود تكفي لمغامرة طائشة مرت بخيالها

ولكنها تستحق. ارتدت عباءتها التي حمدت **الله** على طولها ووسعها، وخرجت من الغرفة، وبدلاً من الاتجاه إلى المطبخ حيث يجب أن تكون وجدت الحذاء الفضي يقودها إلى السفرة. ألقت نظرة خاطفة حول المكان. الجميع منسجمون كما يفعلون دائمًا كلما غابت الهانم عن الدار. تسمع غناء عم عبده السفرجي وضحكات وتشجيع الجميع، وبخطوات جريئة أخذت تذاكر الحفل وبدأت تعدو. خرجت من باب الفيلا الخلفي وأسقطت عنها العباءة، وتحولت رجاء في الحال إلى رجاء هانم. تعرف جيدًا مكان موقف سيارات الأجرة. توجهت إليه بثقة ملأت كيانها، ثقة أعطاها إياها الفستان الأزرق الذي ترتديه. لم يصرخ بوجهها سائق الأجرة، بل عاملها باحترام لم تعتَد عليه. اطمأنت لأنه لم يعرفها، الفتاة التي تشتري الخضار وترتدي العباءة الكُحلية. نظرت إليه باحتقار شديد؛ يا له من منافق! لقد ألقت العباءة للأبد وأصبحت «هانم». ألا تمتلك الآن العقد الثمين؟!

- حفلة الست لو سمحت.

- حاضر يا هانم.

تنبّهت فجأة أن الحفل لن يبدأ إلا بعد ساعات عديدة، وأمامها يومًا بأكمله من الحرية والسعادة. ستأكل كالأغنياء.. ماذا لو أتوا لأخذها من دار الأوبرا؟ ماذا لو؟ طردت الأفكار السخيفة من رأسها. لن يطاردها أحد. لن يجرؤ أحد على تعكير حفل الست. طلبت من السائق أن يأخذها في جولة سريعة حول القاهرة. تذكرت خطواتها

الصغيرة ومحاولتها اللحاق بأبيها. تذكرت اليوم المشؤوم ولكنها وعدت نفسها أن تنسى الجميع؛ الماضي لن يعود. لم يحاول أبوها رؤيتها ولن تبحث عنه. لن تخدم نازك هانم مرة أخرى. لن تعود. ماذا ستفعل؟ ستقضي اليوم كالملوك. أفكار كثيرة دارت برأسها الصغير ولكنها سرعان ما طردت تلك الأفكار وكأنها حشرات صغيرة.

«كنت ولا امبارح فاكراه.. ولا عندي بكرة أستناه .. ولا حتى يومي عايشاه»

«ونقول للشمس تعالي تعالي بعد سنة.. مش قبل سنة.. دي ليلة حب حلوة بألف ليلة وليلة.. بكل العمر.. هو العمر إيه غير ليلة زي الليلة»

في الصفوف الأولى جلست رجاء، ووقفت أمامها الست بكل رونقها وجمالها، وتمتمت رجاء بكلمات الأغنية مع الست، ورأت نازك وحكمت ومنال يصرخن ويبكين من هول المفاجأة، وضحكت ضحكات عالية لم يفهمها أحد من الجالسين حولها، وعلا صوت أم كلثوم حتى غطى على أفكار رجاء وضحكاتها العالية، وبدد كل مخاوفها، ولم يبقَ في المكان إلا تلك اللحظة التي تمنَّت رجاء أن يتوقف عندها الزمن، إنها ليلة بألف ليلة وليلة.

ذات ليلة

شيرين جمال الدين عبد اللطيف

تلامست ثنايا الرسالة ووضعها مراد داخل كتاب ما، وكانت هذه المرة المليون التي يقرأ رسالة تاريخها ثلاثون عامًا، ثلاثون عامًا من الفرقة والغربة والروح، يعتصرها الحنين، فمنذ الفراق أقسم بأن لا يمس غيرها، وها هو ذا متفرد بذكراها. كان يعمل أستاذًا بمعهد الموسيقى، فكانت هي والكتب من تؤنِس وحدته وتخفف من حِدّتها، إلى أن جاءه ذلك اليوم وانقلبت الحال.

في ليلة ممطرة كان في غرفة مكتبه يقرأ كتابًا.. كانت قطرات المطر تشتد مع مرور الثواني، وثقلت كأنها جموع من الرصاص ينهمر على إحدى أراضي النزاع، فقام لإغلاق شباكه، وحين عاد لمجلسه وجد رسالة على كتابه، كان الظرف يشبه ما كانت ترسله حبيبته؛ فتحها فوجد «سأعود.. ولنا في اللقاء حياة» استوقفه المحتوى وكيف جاءت تلك الرسالة، فتركها واستكمل قراءته. اليوم التالي في إحدى محاضراته كالعادة يكون أول الواصلين، ينتظر قدوم الطلاب الذين لم يبالوا بمادة الموسيقى، برغم أنها أقل الأقسام في المجموع، لكنها كانت وسيلة لنيل شهادة تعليمية، ومع اكتمال العدد أخذ يتحدث عن الموسيقى العربية والأغاني، وكيف كان يتم انتقاء الكلمات المناسبة للجمهور، والتي تؤدي للرقي، ثم الأصوات التي لم توجد مثلها حتى الآن، وكان يتحدث بصوت شجيّ عالٍ يخفضه حينًا، ويتحرك كثيرًا لجذب انتباه الجالسين، وكان يخبرهم أن

من أروع نماذج الأصوات المؤثرة أم كلثوم وذهب تجاه حقيبته حتى يخرج منها الأوراق التي سيوزعها عليهم، وكان بها سيرتها الذاتية ونوتات بعض أعمالها، بعد توزيعها فتح الصفحة الأولى ووجد مكتوبًا عليها بخط اليد «حدث ذات ليلة بأن سُمح للأرواح بالعودة للأرض لمدة أربع ليالٍ ولا أكثر، ومُنع منعًا باتًا الحديث عن العالم الآخر.. فلتنطلق الأرواح».

دقائق من الصمت تمر في بطء، ثم أخذت عيناه في تفتيش الحاضرين، من العابث منهم؟ قرر استكمال المحاضرة وكأن شيئًا لم يكن.. بعد عدة ساعات وصل أخيرًا إلى منزله، وأخذ يتصفح ما ورد إليه، محاولاً فهم محتوى الرسالتين، ولكن لا شيء كالعادة، فقرر ترك الأمر حتى يظهر صاحبه. قام إلى غرفة مكتبته، وحينها سقطت عيناه على ذلك الرف الأخير، حيث اعتاد حفظ رسائل حبيبته، فالتقط تلك التلّة من الرسائل وقد فك عقدها، وأخذ الرسالة الأولى، والتي كانت الأخيرة منها، ودوّنت بها:

«عزيزي مراد.. ترى الحياة قد فاقت كل حدود البشاعة، أن تكون في ثمار العمر وتتمنى أن الحياة لا تأتيك بأقسى من ذلك، أعرف أن ألمي مقدس وأن **الله** وحده من يعلم ما بي، وأعرف أيضًا أن يومًا ما سيبدل **الله** ذلك كله، فالدنيا فانية تفعل بنا ما تفعل. أريد أن أحيا، أتدرى؟ إنه لا يعنيني أي شيء ولا أريد سوى ما أخبرتك به، قالوا لنا بأن نعتاد السوء، ولا يعلمون أن

اعتياد السوء يزداد سوءًا، هناك الكثير من المشاعر تعتصر روحي، لا أرغب في الفراق، ولا تذنب بالتفكير في أني سأعتاده، فأنا لا أعتاد ما هو على غير إرادتي وليس في الحب، أخبرتني يا عزيزي في رسالتك الأخيرة بأن الأيام وحدها تداوي القلوب المنكسرة، وقد أدهشني ذلك الكلام لأنه صادر منك، فأنت وحدك من يعلم أن الدهر وحده لا يكفي ليطفئ قلبين ينبضان من نفس الشريان. ومع نهاية رسالتي أخبرك أن النسيان لم يُخلق لي، وأنه لا بد لنا من لقاء أخير.. فإلى لقائي بك».

أخذ في قراءة الرسائل الأخرى، حتى وصل به الزمن بعد ساعتين ونصف من القراءة وبدأ النعاس في السيطرة عليه، إلى رؤية مشوشة كانت تقف أمامه، وكان لمعان الألماس أول ما لفت نظره في ملابسها. مالت إليه وأمسكت بالرسائل في يديها، وكان التعب قد تملّكه، فلم يقاوم ولم يشعر بشيء سوى وجودها في الغرفة، أيعقل أن تكون هي؟! ثم نطقت شفتاه بكلمة «حبيبتي» في هدوء، وعمّ الظلام.

بعد نوم طويل أفاق، وكأن قد جاءته صحوة ما بعد الشكر، كان ما يزال في مكتبته مُلقى على الأرض، ولكن الرسائل قد جمعت من جديد وربطت، وقد وجدها أمامه جالسة تنظر إليه.. أفجعته الحال وقام بهستريّة وقال: من أنتِ؟

قالت: ألا تعرفني؟!

قال وهو يحاول استيعاب ما يحدث: لا.. أقصد نعم

نعم.. ومن لا يعرفك؟! لكن كيف ؟ جئت.. وأنت.. أتفهمين؟ كيف؟

قالت: اهدأ. لقد أنذرتك بقدومي.

قال: ماذا!

قالت: أنذرتك.

قال: أنتِ ميتة!

قالت: وعدت للحياة!

ثوانٍ ثم فقد الوعي كاملاً، استيقظ وهو مُلقى على الأرض. صداع يسيطر على رأسه، حاول استجماع وعيه، ثم نظر إلى أعلى فوجدها جالسة أمامه،

قالت :

- أتمنى أن تكون قد أخذت الصدمة ولا تكررها.

هو صامت وعيناه مُحدّقة فيها، فقالت: حسنًا.. سأخبرك مجددًا، سُمِح لأرواحنا بالعودة للحياة، فعدت لأطمئن على بلادي وأرى كيف حالها بعد أعوام مغادرتي لها.

قال : أم كلثوم في بيتي؟!

قالت: لم أجد شخصًا آخر أذهب إليه، لا أعرف أين منزلي الآن، كل ما توصلت إليه هو معهد الموسيقى، وراقبت كل من فيها فوجدتك أنسب إليّ في التعامل.

قال: ما زلت لا أفهم.

قالت: لا أحب الغباء.

قال متردداً: ما سبب رجوعك؟

قالت: أريد المساعدة، بالطبع تغيرت طرق مصر، لذلك

أريدك أن تدلني على منزلي.

قال: لا أعرف أين هو، لكن سأحاول.

قالت: إذن أتحب الموسيقى والشعر؟

نظر إليها في صمت وكأنه يحاول تهدئة نفسه، وفي نفس الوقت حالة الذعر تكاد تُجمد عقله.

المشهد الجديد يحاول مراد تهيئة حاله على تلك الحالة الغريبة، كان في حاله ترقب وصمت.

كانت هي تتطلع إلى كتبه الموجودة في هدوء، ولمح هو ديوان شعر يحتوي أعمال أحمد رامي، وكانت تقرأ باهتمام. تردد قليلاً ثم قاطعها، فقال:

- أترينه فى العالم الآخر؟

نظرت إليه بنظرة متفحصة وأكملت قراءتها.

قال: كنت أظن في الأخرة يبقي المرء مع من يحب.

قالت: وانا أحببت وطني أكثر من أي شيء.

قال: تمحورين كل شيء حول الوطن.

قالت: لأن حبه دائم.. فهو الأعظم والأبقى.

شعر بالانزعاج لقوة ردها التي تجعله لا يعرف ما يقول أو يشعره بسذاجته؛ صمت، فقالت هي بنفس النظرة المتفحصة : نعم أراه.. مازال يكتب لي ومازلت أغنّي ما يكتب.

قال : أتعرفين ما أصابه بعد موتك؟

لم تنطق، وظلت محملقة فيه، ففهم بأنها تريد منه استكمال الحديث مسرعًا، فقال: تفشى الاكتئاب في نفسه وروحه فانعزل عن كتابة الشعر.\

عيناها تعبر عن الامتنان لكاتبها، فقالت: كنت ملهمته، مع أنه هو من علمنى الكثير، كان له الفضل في تذوقي الشعر، اتعرف؟ عندما كان يأتي إلي اعتاد جلب ديوان شعر جديد لأي شاعر.

قال: نعم أحُبك كتيرًا كثيرًا، حب لدرجة الخيال في قداسته.

قالت: حب الوطن هو الحب المقدس، أى حب أخر مجرد عاطفة قوية.

قال بحزم: لا .. لماذا تضعين الوطن كأسمى المسميات.

قالت : لأنه كذلك، تضحي بالكثير له ولا تطلب منه آى شىء، وبما أنه خلى من كل المصالح واصبح هدفًا لذاته أصبح مقدساً.

قال: في الحقيقة ليس عليه بطلب أي شيء، لأننا لا نملك أي شيء، لأنه لم يمنحنا إياه.

قالت فى غضب ممزوج بالاستنكار: غريب أنت حقًا؟ كيف تكون مصريًا ولا تحب مصر؟! إذن لماذا تعيش في أراضيها؟!

قال: لأني لا أملك ثمن المعيشة في الخارج .. ببساطة شديدة.

اتسعت عيناها من الصدمة وقالت: كنت أظنك على قدر من الثقافة!

قال: ما دخلها؟! هل مقياس حب الوطن بالثقافة؟ أتدرين أكبر خطأ قد يرتكبة مصري؟ أن يكون ذا وعي

وثقافة تجعلة يبصر الحقيقة؟

قالت بنبرة استهزاء: وما هي الحقيقة؟

قال في غضب: أن تموت روحك وشغفك مرات عديدة وتستمر في الحياة، وأن يلاحقك الموت في كل شيء، أتعرفين ما المشكلة؟ أن علاقتنا بمصر من أسوأ أنواع الحب، حين يتلاقى المحبان ويتنافران أيضًا، لا هما حبيبان ولا هما غرباء، إنما عالقان في اللا حالة.

ألقت عليه تلك النظرة مجددًا وعاودت قراءة كتابها، فصمت الآخر، وفتح حقيبته ونثر كل الأوراق التي كانت فيها على المكتب، بعد ساعة بينما كان مشغولاً في عمله، كانت ملامحه تقول بأن الغضب ما زال يتملكه، فعروقه قد برزت بشكل قوي على جبهته وقد لاحظت هي ذلك، لكنها لم تفعل شيئًا واستمرت في القراءة، فقال: أتعرفين ماذا أفعل حين أغضب؟

قالت: ماذا؟

قال: أسمع أغانيكِ.

مرت ليلة على وجودها معه، وأصبح الكلام بين الاثنين لا ينقطع أبدًا، أخبرها عن كل شيء متعلق بحياته وتفاصيلها التي صنعته.. كيف كان يعشق الموسيقى، وأول مرة سمعها في المدرسة، ثم بداية دخوله الجامعة، ثم قصة عشقه التي حُرم من استكمالها، كما أخبرها أيضًا بأحوال البلاد وما آلت إليه الأمور؛ صُدِمت أم كلثوم كثيرًا من تدهور الحال، ولم تصدقه عندما أخبرها بالمستوى المنحدر للأغاني

العربية الآن، فقام ليشغل لها إحدى قنوات الأغاني، واستمعا معًا، وكانت مفاجأة لها، أدركت في الحال أن مصر قد انطفأت شمعتها وقُلِبَت الموازين، حينها بدا القلق على ملامح وجهها، حين قاطعها مراد قائلاً:

- أزعجتم بالحال، صحيح؟

- صحيح .. ولكني ...

- ماذا؟

حاولث جمع شتات أفكارها وقالت: هل أنا.. أصبحت في النسيان؟ هل تم تجميد ذكراي؟ هل أقاموا منزلي متحفًا أو أي شيء لتعرفني الأجيال الجديدة؟ أعرف أن الفنان لا يجب عليه انتظار التشجيع أو المقابل، ولكني أتمنى أن يكون حبي متبادلاً وأن تتذكرني مصر للأبد لأنها خالدة في البال.

كان يتحاشى الرد على ذلك السؤال، فحاول أن يهرب منه برمي تلميح بسيط، فقال: لا، فالشعب عشقك، فقد جئت ووضعت قواعد لا يتخطاها أحد. أتدرين؟ برغم كل ما بها من سوء لكني أنا أيضًا مثلك أعشق بلادي، لذلك لا تعجبني حالها، لأنها أرقى من ذلك بكثير.

- كنت أعلم أنك تحبها.

ابتسم ابتسامة يشوبها الحزن: ولكنها مقبرة المواهب.. هو حب من طرف واحد، لذلك نتعذب. صحيح.. غدًا سنذهب لإيجاد منزلك.

- أنا أتذكره، ولكن كما تعرف لم تعد الشوارع كما عاهدتها.

في اليوم التالي استقلا أتوبيسًا عموميًا للذهاب إلى هناك، وكانت هي أول من صعدت، وفاجأها تحرك الأتوبيس، وما زال مراد يركض في حركة موازية حتى يستطيع القفز داخله، وقد أضحكها ذلك الموقف كثيرًا، فظلت تسخر من رشاقته. أمضيا نحو ساعة ونصف في الطريق، وكانت تسمع أغاني ما تسمى بالمهرجانات، من خلال تلك الظاهرة المسماة بشباب الموتوسيكلات. نظرت إلى مراد في دَهش ممزوج بالرفض، فأومأ برأسه كأنه يخبرها أنه يعرف أن تلك هي الحال، وحاول ألا يتحدث معها، فهو الوحيد من يستطيع رؤيتها كما أخبرته، نزلا عند مكانها المنشود، فسأل البواب فقال:

- ألا تعرف أين كان بيت الست أم كلثوم؟

قالت هي: كان؟

ارتبك مراد فأكمل: ألا تعرف؟

البواب: كان يقع في ذلك المكان قبل هدمه من الحكومة.

قالت في فزع: هدمه؟

قال مراد محاولاً ستر الانفعال على وجهه: لماذا هُدِم؟ اتعرف؟

البواب: قالوا بأن لا أحد من الورثة أو الحكومة اهتم بتركه، ولكن الشائع أنه كان قرارًا من الحكومة.

حينها انتفضت أم كلثوم في ثورة عارمة، فمشت بسرعة؛ أسرع مراد وراءها ووجدها في حالة صدمة تنظر إلى البيوت والشوارع، وعيناها تذهبان وتأتيان ولا

تستقر على شيء محدد، فوقفت ثم أخبرته بعنف:

- أكان قرارًا سياديًا؟

قال في توتر: ربما .. لا أعرف.

قالت: كيف؟ كيف لهم؟ كيف يمحونني من التاريخ؟ ألم تتدخل وزارة الثقافة؟ ألم تتدخل أي دولة أخرى؟ كيف؟! رسّختُ أصول الأغنية العربية، ووضعتُ كل قواعدها لأصبح أنا الاستثناء، لكني -للأسف- أعتبر نفسى بلا قيمة، فوطني لم يقيمني، وها هو يمحوني من ذاكرته.. كيف له أن يفعل ذلك؟ كيف ينسونني؟ كيف؟! تناسوا مواقفي أيام الحرب؟ أنسوا كل شيء؟!

- صدقينى لم ينسَك أحد؛ ما زلتِ في كل بيت وما زلتِ في كل ذكرى.. ما زلتِ وستزالين كوكب الشرق.. أحبَك الشعب رغم أنف السادة ورغم كل شيء.

نظرت إليه بعينين يملؤهما الدمع، فقالت: يا ليتني لم أعد! يا ليتني لم أكن!

- لا لا .. لا تذهبي أرجوكِ!

في وسط زحام الناس بدأت ملامحها تتلاشى شيئًا فشيئًا، وكانت عيناها مصمتة والدمع يزحف بين أشلاء كلثوم.. رحلت للمرة الثانية وهُدم الهرم الرابع، ثُرى كيف تُهدر قيمة وتُكسر وسط خبث النفوس؟! أيكون الرحيل هو الأفضل؟ لعل في العالم الآخرة جنة توازي كل الأوطان.

وقابلتك إنت لقيتك بتغيّر كل حياتي.. معرفش إزاي أنا حبيتك معرفش إزاي يا حياتي...

تدخل والدتي بسرعة وتغلق الراديو.. لن أذكِّرك يا سلوى مرة أخرى أن الامتحانات على الأبواب.. لم أتفوّه مثل كل مرة بأنني أذاكر وأنا أستمع لصوت أم كلثوم وأن صوتها وحده يكفي لأن يحفزني على المذاكرة، فأشعر وهي تغني بأنني مُحلِّقة في سماء بعيدة زرقاء صافية.. الطيور من حولي تغني معها، والأشجار تتمايل أوراقها في خفة ونعومة. أرى العالم وكأنه عالم آخر بألوان مختلفة عن عالمنا الحالي.. عالم به كل الألوان واضحة ومبهجة. أغلقت أمي الباب وأغلقت الكتاب.

برغم غضبي الشديد من عدم تفهّم أمي لوجهة نظري ومعاملتها لي كطفلة، وهو على العكس من كوني في آخر سنة في كلية الهندسة. في السابق وأيام الثانوية العامة كانت ترتبط الامتحانات معي بأغنية أم كلثوم «إنت عمري».. كانت تعتقد أمي وقتها أنني أعيش قصة حب ولا أريد البوح بها لأحد، أتذكر كم نصحتني وتحدثت مع صديقتي كي تخبرها إذا كنت في قصة حب أم لا، وأننا ما زلنا في سن صغيرة وما زلنا لا نفهم معني الحب والارتباط.

كنت دائمًا لا أريد أن أدخل في قصة حب وتجارب أعتبرها فاشلة في مثل هذه السن، فكان الحب والارتباط بالنسبة إليّ مثلما تقول أم كلثوم «طول عمري بخاف م الحب.. وسيرة الحب.. وظلم الحب لكل

صحابه.. وأعرف حكايات مليانة آهات ودموع وأنين». كنت أكتفي فقط بالاستماع لقصص الحب والدموع من أصدقائي ومن حولي.

وبعد ظهور النتيجة والتحاقي بكلية الهندسة ظننت أن هاجس والدتي قد زال، ولكن يبدو أنه لا يزال لديها هذا الهاجس. بالفعل إنني أعيش قصة حب.. «من همسة حب لقيتني بحب».. عندما طلب مني كشكول المحاضرات لم أكن أعلم أن أحمد هو من سيغير حياتي هكذا، فقد كنت أتنظر رؤيته دائمًا. كنت دومًا أبحث عنه في كل الأماكن في الكلية، كان وجوده بالنسبة إليّ الهواء. أحببته، متى؟ وأين؟ لا أعرف، ولكن شعرت مع الوقت أن حبه قد تغلغل بداخلي تدريجيًا، إلى أن أعطاني الكشكول وبه ورقة مكتوب فيها «رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا.. علموني أندم على الماضي وجراحه» أحمد يحب هو الآخر أم كلثوم. لم أكن أعلم ماذا أفعل حينها، هل أمزق الورقة بوجهه أم أحتفظ بها وأرد «حيرت قلبي معاك.. وأنا بداري وأخبي»؟ وكان عليّ أن أختار ماذا أفعل. وكان خياري خيارًا آخر، ألا وهو أن أحتفظ بالورقة وألا أرد على الرسالة.

وجاء أحمد في اليوم التالي وعلى وجهه علامات السعادة، متجهًا نحوي بابتسامة واسعة، بادلته الابتسامة، ولكن سرعان ما عدلت عنها وتظاهرت بالجدية والوقار.

- سلوى.. هل قرأتِ الرسالة؟

- نعم، ولكن ما معناها؟

- أردت أن أعبّر لكِ عن مدى حبي لكِ.

- حبك؟!

- نعم.. فأنا أحبك منذ العام الأول لنا في الكلية، ولكني قررت البوح لكِ في هذا العام؛ خشيت أن تتم خِطبتك.

- خطبتي؟!

- نعم.. فأنا أحبك وأريد أن تصبحي زوجتي.

- زوجتك؟!

- نعم.

لا أتذكر وقتها كيف ركضت إلى بوابة الكلية بهذه السرعة.. لم أسمع مثل هذه الكلمات من قبل، وبالتحديد ممن أحب. عدت إلي المنزل وفتحت الراديو على إذاعتي المفضلة، إذاعة أم كلثوم، وكانت تشدو «يا حب غالي مينتهيش يا أحلى غنوة سمعها قلبي ولا تتنسيش، خد عمري كله بس انهارده خليني أعيش». ليت أحمد يسمعها هو الآخر الآن.

قررت أن أقول لأحمد بأنني موافقة على طلبه للزواج، ولكن بشرط أن ننتهي أولاً من امتحانات هذا العام. بحثت عنه في كل مكان في الكلية، ولكني لم أجده، ولكن في النهاية وجدته واقفًا مع فتاة بالقرب من الكافيتريا. مَن هذه الفتاة؟ لم أرها من قبل! حاولت التظاهر بعدم الاكتراث، ولكن وقعت مني دون قصد الحقيبة، ووجدته قد التقطها بسرعة وأعطاها لي، ودون أن أتفوّه بأي كلمة أخدتها منه وأنا أتذكر «اسأل روحك..

اسأل روحك قبل ما تسأل إيه غيرني.. أنا غيرني عذابي في حبك بعد ما كان أملي مصبرني».

عدت إلي المنزل باكية، لم أتحدث مع أحد، ولا أستطيع وصف شعوري وقتها، ولكني تأكدت أيضًا وقتها أنني بالفعل أحبه، وإلا لمَ كل هذا الغضب والشعور بالغيرة؟! ولكن ما الفائدة وهو يبدو أنه عدل عن قراره وتقدم لأخرى؟ ولكن كيف وهو قال لي إنه يحبني؟ كيف ينساني بهذه السرعة، إذن لم يكن يحبني مثلما يزعم. هل كان يخدعني؟ لا أعرف.. ربما.

قررت أن أتناول الشاي في الشرفة وأفكر بهدوء. ماذا أفعل؟ هل أخبر أمي؟ ولكن ما الذي أسمعه؟ إنه صوتها. نعم بالفعل صوتها.. أم كلثوم.. أمي تتناول الشاي بالنعناع في الشرفة وتسمع أم كلثوم؟ هل يجب أن أدخل وأخبرها بأنني علمت أنها تسمع أم كلثوم هي الأخرى، أم أنصرف وأفكر في غرفتي؟ قررت أن أنصرف، فلست في حاجة للصدام مع أمي الآن.

- سلوى.. سلوى.

- نعم.

- لم أرِد الأسبوع الماضي أن أسألك ما هو قرارك حتى لا أسبب لكِ الإحراج وأترك لكِ فرصة للتفكير.

- قرار ماذا؟

- هل أنتِ موافقة أم لا؟

- ولكن ماذا عن هذه الفتاة؟

- أي فتاة؟!

- الفتاة التي كانت معك؟

- منى؟

- لا أعرف ما اسمها.

ابتسم ابتسامة واسعة: إنها أختي.

- أختك؟

- نعم.. ما هو قرارك؟

- موافقة ولكن بشرط.

- ما هو؟

- أن تتم الخطبة بعد الانتهاء أولاً من امتحانات هذا العام.

وانتهت امتحانات هذا العام.. وانتهت محاولات أمي في منعي عن الاستماع لأغاني أم كلثوم، بل وأصبحنا نسمعها معًا، أعد لها الشاي ونستمع لها مع نسمات الهواء في الشرفة.

وتمت خطبتي لأحمد. كم سهرنا معًا نسمع أغاني أم كلثوم! كم تغنينا معًا بأغنية «سيرة الحب» فكنا نشعر أنها سيرتنا نحن! «يا اللي مليت بالحب حياتي أهدي حياتي إليك.. روحي قلبي عقلي حبي كله ملك إيديك.. صوتك.. نظراتك.. همساتك شيء مش معقول.. شيء خلّى الدنيا زهور على طول وشموع على طول.. **الله** يا حبيبي على حبك وهنايا معاك.. **الله** يا حبيبي يا حبيبي **الله الله**».

لم أكن أعلم أنني سأعرف معه معنى كل كلمة في هذه الأغاني، بل وأشعر بمعنى كلمة «أعد» مع نهاية كل

مقطوعة.. وسافر أحمد واستمرت أم كلثوم تشدو بالأغاني، وأنا أتذكره دومًا بها.. فكان أول أسبوعين يجد صعوبة بالغة في الاتصال، فيكتفي بإرسال رسالة نصية «يا سلام ع الدنيا وحلاوتها في عين العشاق.. يا سلام يا سلام على بهجتها يا سلام يا سلام».. وكانت رسالتي له «وأنا خدني الحب لقيتني بحب.. لقيتني بحب وأدوب في الحب.. وأدوب في الحب وصبح وليل وليل على بابه».

وظل أحمد لمدة عامين بالخارج، لم أكن أعرف أن الحياة ستختلف بعده هكذا، فأصبح أحمد -بعد أمي- بالنسبة إليّ هو الحياة، الحياة التي أحيا بها ولأجلها. وفي يوم اتصل بي أحمد وقال لي أريد أن أراكِ بشدة، قلت له وأنا أيضًا. باقٍ من الزمن شهر واحد.

- سلوى.

- نعم.

- لم أسألك.. يا ترى أين تريدين أن تذهبي عندما نلتقي؟

سرحت لبعض الوقت ثم قلت له: أريد أن أرتدي فستانًا أبيض طويلاً وأنت ترتدي البدلة السوداء وتحضر لي باقة من الزهور الحمراء ونذهب لإحدى حفلات الست ونجلس في الصف الأول.

ضحك وقال لي: وأنا أيضًا أريد أن نحضر إحدى حفلاتها معًا، ولكن ليس كل ما يدركه المرء يناله.

عاد أحمد أخيرًا بعد ثلاثة أعوام، وعُقد القران..

وفاجئتني والدتي بأغنية «افرح يا قلبي لك نصيب تبلغ مناك ويّا الحبيب.. يا فرحة القلب الحزين لو صادف الخل الأمين بعد التمني والحنين يبلغ مناه ويا الحبيب.. افرح يا قلبي». وتزوجنا وأصبحت أسمع معه «إنت عمري» و«سيرة الحب» وأغنية زفافنا «افرح يا قلبي» في الشرفة مثلما كنت أسمعها مع أمي. كنت أظن أن الشتاء سوف يمنعنا من الاستماع للأغاني في الشرفة، ولكن أصبح تناول الشاي مع أغاني أم كلثوم متعة أخرى صيفًا وشتاءً.. ومشاهدة النجوم والقمر في ليله اكتماله مع «يا قمر ليلي.. يا ظل نهاري.. يا حبي يا أيامي الهنية.. عندي ليك أجمل هدية».. وكانت أريج هي أجمل هدية من الله لنا.

مرت الأعوام وأصبحت أريج هي الأخرى تسمع أم كلثوم معنا.

وفي يوم وجدت في يدها الصغيرة ورقة، نظرت فيها وجدتها الورقة التي كان أرسلها لي أحمد من قبل.

- أريج.. الامتحانات على الأبواب.

- أعلم يا أمي.. سوف أغلق الراديو بعد هذه الأغنية.

ثومة.. حكاية اسم

إسلام محمود محمد السيد

حين تبدأ الحكايات جميعها بـ«كان»، فإنها قد تكون قد انتهت بالفعل قبل أن تبدأ في حكيها، وحين تعقبها «ياما كان» تكون المبالغة في الانتهاء من الأساس، أو ربما المبالغة فيما قد انتهى، وربما تحمل فيما تحمل تحسّرًا على ما فات أيضًا. أو يمكن أن يقصد الراوي استدعاءً للمكان، فتكتب «يا مكان»، كأن الزمان قد انتهى من جهة بـ»كان» والمكان بدوره قد غاب بـ«ياء النداء» من جهة ثانية. أما حين تروي حكاية تبدأ في لحظتها.. فتكون اللحظية حجابًا لا يدرك معه لها بداية.. وتصبح هنا «كان» اعتبارية لا وزن لها إلا باعتبارها كلمة في سياق مملكة الصوت التي تأتي على رأسها الكلمة.. بينما تبطن أنت ذكر مملكة المعنى والتي تأتي على رأسها الدلالة، وبين الصوت والكلمة من ناحية، والمعنى والدلالة من ناحية ثانية، والتأويل والتأويل المفرط من ثالثة وليست أخيرة، تأخذ الحكاية بدايتها وتتجه بثقة نحو النهاية.

ثومة.. أرأيت قبل اليوم كيانًا يتشكَّل حين تنظر إليه، فإذا أغلقت عينيك توقّف اكتمال الكيان؟ أنا رأيت.. فعلت.. أغلقت عيني قبل أن تدلف إلى خشبة المسرح في مدينتي، فتوقف كل شيء حولي. كان ذلك قبل سنوات من ميلادي، فلا تدري من فعل ومن تمنى أن يفعل. فتحتها من جديد فبدأ يكتمل تارة أخرى. شدتني إليها الرؤية، فتوقفت عن النظر بعد اكتمال التشيؤ حولي، واقتربت ابنًا لعشرة أعوام قبل ميلادي. تركتها

خلفي ولم أعد إليها بعد ذلك أبدًا.. الفضول كان وراء فكرة آلة الزمن لدى البعض، الندم كان وراءها لدى البعض الآخر، ومنهم أنا، ندمًا على عدم المعايشة أو المزامنة.. ولم يكن لديّ أي منهما لأعود أو لأمضي.. الأمر كله كان لها.. ثومة.

لا تنظر إلى الإبداء ولا إلى البادي فتضحك وتبكي.. وإذا ضحكت وبكيت فأنت منك لا مني.. إن لم تجعل كل ما أبديت وأبديه وراء ظهرك لم تفلح.. فإن لم تفلح لم تجتمع عليّ.

كانت حكايتي معها.. تخلية نحو البداية.. بلا بدايات متعقَّدة.. وتحلية نحو النهاية.. بلا نهايات مستعجلة.. وما بينهما كانت هي وحدها.. هي.. وحدها.. فلا شخوص تدانيها.. ولا حبكة تخفيها.. ولا عقدة تلغزها.. أو حل يعجزها.. فقط هي.. ثومة.. ملاك خارج الجنة.. غير مغضوب عليه.. وغير ساحر.. لم تتحدث ولم تشِر.. فقط ابتسمت لطيفي في الكواليس، أو لعل الابتسامة سقطت منها قبل أن تقف ربة الأرباب على مسرح تمسك فيه بخيوط تنتهي بقلوب مَن حضر ومن شاهد ومن سمع ومن سوف.

إذا خرجت عن الحرف خرجت عن الأسماء، وإذا خرجت عن الأسماء خرجت عن المسميات، وإذا خرجت عن المسميات خرجت عن كل ما بدا، وإذا خرجت عن كل ما بدا قلت فسُمعت ودعوت فأُجبت. الواقف لا يعرف المجاز.. إن ترددت بيني وبين شيء فقد عدلت

بي ذلك الشيء موقف الرفق. من أشهدته أشهدت به، ومن عرفته عرّفت به، ومن هديته هديت به، ومن دللته دللت به.

الأسماء غالبًا ما تقوم بوظيفة الدلالة والإشارة والحصر والتفرّد، ونسبة للأفعال والأقوال وربما لإثبات الوجود.

وإذا كان الإنسان بلا اسم.. مجرد من اللغة.. فاقدًا للحيز الذي تشغله الأسماء في الاجتماع البشري، فإنها وحدها كانت عَلمًا بدون اسم.. كانت اسمًا واقعًا على أشياء قد ائتلفت بمراتب شتى.. وكنت أنا أشياؤها. أما مراتبها فوقعت عليّ وحدي فكان قدرًا في غير اسم.. أنا.

دور آخر للأسماء.. حفظ الأموات.. الإثنين الأسود يلوح من بعيد.. فالذين يموتون يُخلَّدون بأسمائهم وربما أدركَتْ هي ذلك قبل وقوفها شامخة تتخطى أعتاب الخلود.

ولكن.. يظل الاسم هو اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض لنفصل به بعضه من بعض.. أما هي فكانت بلا عرض وبلا فصل.

حين تسمَي شيئًا أو أحدًا تضحي بالمسمى في سبيل الاسم، فتصبح الشمس التقاء ثلاثة أحرف فقط، هي الشين والميم والسين، لا كما هي عليه كأكبر النجوم حولنا وتدور في فلكها كواكب سيّارة، وتختزل حروفها الدفء والحرارة، وتخفي البخر وتجمع بخار الماء في

السحب تهيئة للمطر، ويسلب التقاء حروفها الثلاثة إيجابية طاقتها وفائدتها لكل مخلوقات **الله** على الأرض. كذلك كوكب الشرق.. كذلك الثاء والواو والميم والتاء المربوطة.. ثومة.. الاسم أيضًا يبدأ سلسلة لا نهائية من المترادفات والمتقابلات والمشتقات حتى أربعين مشتقًا في اللغة العربية واثني عشر في الإنجليزية وسبعة عشر في الإيطالية.

أدنى ما يبقى من المعرفة اسم البادي.. إذا عرفت من تسمع منه عرفت ما تسمع.. إذا أشهدتك كل كون إشهادًا واحدًا في رؤية واحدة فلي في هذا المقام اسم، إن علمته فادعني به، وإن لم تعلمه فادعني بوجد هذه الرؤية في شدائدك.. فالمعرفة ما وجدته.. والتحقق بالمعرفة ما شهدته.

المصريون لا يذكرون للثعبان اسمًا حتى لا يحضر، يقولون: الذي لا يسمى. وكذلك حين ينطقون اسم من لا يحبونه أو اسم من يخافون منه، كأن نطق الاسم استدعاءً لصاحبه. حاولت مع اسمها بعد موتها فلم تحضر. المسلمون يفعلون الشيء نفسه.. يضعون أو يوضع لهم تسعة وتسعين اسمًا لربهم، ما بين أسماء جمال للرجاء وأسماء جلال للخوف، وما بين الخوف والرجاء يعيشون ويموتون. الأكثر من ذلك أن له اسمًا أعظم لا يعرفه إلا قليل منهم كما يروون. الشيطان أيضًا كالثعبان لا يسمى.. انتقام فظيع أن تسحب الاسم من أعدائك فتجرِّده من الكينونة والكيان معًا.. هكذا تظن..

وهكذا لا يكون.

الاسم أيضًا مفتاح لكثير من الأبواب.. الوظيفة والشهرة في واقعنا، والمغارات والكنوز في ألف ليلة وليلة، وهو أيضًا أول ما تعلّمه آدم، وكان العلم وحده، وليس الخلق وليست النفخة سببًا في الأمر بالسجود له.

الاسم عَلَم.. فلكل شيء اسم لازم ولكل اسم أسماء، فالأسماء تفرق عن الاسم والاسم يفرق عن المعنى.

والاسم.. يظل نفسه. وإن انقسم اللغويون في أصل اشتقاقه، فمنهم من ذكر أنّه مأخوذ من السّمُوّ، ومنهم من قال بأنّه مشتق من الوَسْمِ، أو هو علامته، فقد مَضى الشَّخصُ ثُمَّ الذِّكرُ فانقرَضا معًا، وما ماتَ كُلَّ المَوتِ مَن عاشَ مِنهُ اسم.

ثومة.. عرفت بعدها أنه لا يليق بغيرها. كان هو الاسم الذي اختزل وأخفى وأبطل الكثير منها وعنها وفيها، أخشى أن ضمير الغائبة وحده قد يدل عليها أكثر مما يدل اسمها، خصوصًا بعد أن سيطر الإثنين الأسود الثالث من فبراير. لكنني سأستعمل الاسم هذا لا كبديل عن المسمى، وإنما ككلمة سحرية تفتَح لها أبواب السنين، كنص سأقرؤه فيما بعد تُقطَع به الأرض أو تُكلَم به الموتى أو تُسيّر به الجبال، أو تُحيا به الذكرى، أو تبدأ به الطرق وإليه تنتهي.. ثومة.

لكل شيء شجر، وشجر الحروف الأسماء. فاذهب عن الأسماء تذهب عن المعاني، وإذا ذهبت عن المعاني صلحت لمعرفتي.

ثومة.. اللفظ فيها لا يفضل المعنى، والمعنى فيها لا ينتقص من اللفظ. وإن استحال معها فرش المعنى وبسط المراد بإجلاء اللفظ بالمترادفات الموضحة والأشباه المقربة والاستعارات الممتعة.. حتى لتبقى هي نفسها قبل نطق باللفظ، وقبل سبر للمعنى.. ثومة.

لا يُعبّر عن ربي إلا لسانان.. لسان معرفة، آيته إثبات ما جاء به بلا حجة، ولسان علم آيته إثبات ما جاء به بحجة.

نورها الباهر لم يغشَني مرةً واحدة؛ بدأت مع حسنها بالحيرة، ثم بالإدراك، ثم بالوعي، ثم بالاعتقاد. وأراني لم أنتهِ بعد.. فلن ترى الحسن إلا نفس حسناء. وكنت بغيرها حتى قابلتها، حين اعتدت على النور رأيت. كانت تتربع على عرش نغم قدسي، تتغنّى بكلمات لم أفهمها حينئذ. لم تكن هناك حيث كنت، كانت هناك حيث أتت الأنوار من حولنا.. أضاء شيء داخلي بنور لم أعتده من قبل.. وحين انتهت من وصلتها كأنني أراها وقد أدارت رقبتها يمنة ويسرة وهي لا تزال تتمتم. حكايات الأجداد صغيرًا كانت تتحدث عن ساحرات، ولكنها كانت غُفلاً من ذكر النور الذي أشاهده الآن من موقعي البرزخي في أصلاب الألحان.

نظرت إليّ وكأن الرب يفعل. ابتسمت وأخذت بيدي، وأجلستني ووضعت يديها على فخذيّ وأنا في مقابلها، ثم أوقدت على عيني بوقود النور الساطع، وبريق الفهم اللامع. كانت تُبحِر بي إلى بحار بعيدة وأناس يرتدون

أزياءً غريبة، رأيت ذلك دون أن أغمض عيني، أرتني بعينها وكأن عيني بلا نظر، وبصّرتني برؤيتها فكأنني قبل بلا بصر.

فكانت الحقيقة أشعة تتناثر حولي.. لملمتها بعد ذلك طيلة عشرين عامًا من هذه اللحظة، حين ولدت من جديد ابنًا لعشر سنوات، لتبدأ رحلتي معها، فكان علم إبداء لا ابتداء، كان علمي معها علم كشف لا علم وصف.. اتّباع بلا درس أو أوراق.

علمت من كلمات أغانيها كيف أن كل محلول فيه وعاء، إنما حلّ فيه لخلو جوفه. وكل خالٍ موعى إنما خلا لعجزه، وإنما أوعي لفقره.. كل مشار إليه ذو جهة، وكل ذي جهة مكتنف، وكل مكتنف مفطون، وكل مفطون متخيل، وكل متخيل متجزئ، وكل متجزئ هواء، وكل هواء ماس، وكل ماس محسوس، وكل محسوس فضاء، وكل فضاء مصادف.

ثومة.. التي عاشت قبل عقود عند النهاية، أسماء المخرج والممثلين لم تصعد بعدها على الخلفية السوداء لشاشة الحياة، لم يضئ أحد نور الكون بعدها ليخرج المتفرجون.

كنت فارغًا أتوق إلى الامتلاء، وكانت نهرًا يتوق إلى الفيضان.. كلانا يبحث عما يحقق توقه. تجمّع ينابيع المعرفة في بئري لم ألحظه إلا بعد تلك السنين. كانت وقفتي ينبوع علمي، فمن وقف كان علمه تلقاء نفسه، ومن لم يقف كان علمه عند غيره.

مساء الإثنين الثالث من فبراير عام خمسة وسبعين وتسعمائة وألف هوى فجأة، كأنه عباءة شيطان أخرِج من الجنة لحينه فأقسم أن ينتقم.. الأرض والسماء.. ذلك الشفع الربّاني التليد غدا وترًا محضًا.. النجوم غابت كلها إلا نجم كانت تراقبه ويراقبها. هذه الليلة وجدته يأفل ثم يأفل حتى بزغ الفجر. رحلت.. بسبب دخولي الغبي في معادلة خلودها.. رحلت ثومة.. يجب أن يُرفع القلم الآن، يجب أن تجف الصحف الآن، يجب أن تكون الدنيا غير الدنيا، بل يجب ألاّ تكون على الإطلاق. لماذا تتجاهل الشمس الأمر لتشرق من جديد؟! لماذا جحد الليل أغانيها لي وله ليهبط من جديد؟! لماذا لم تحزن النجوم حتى على أفول نجمها؟!

مؤامرة.. مؤامرة.

الأشجار فعلت.. الأغصان أنّت.. الأوراق سقطت في الربيع دموعًا صفراء.. أصوات لم أسمعها من قبل ضجَّ بها المكان حولي.. للأمكنة قلوب، فلماذا ليس للأزمنة مثلها؟ الأحجار نضحت بملح دمعي؛ ظهرت مجاريه على صفحتها الصمّاء.. ذرات الرمال تباعدت ألمًا.. لم تسكن الأشياء من حولي إلاّ عندما بكت السماء.

إذا بلوتك فانظر بما علقتك.. فإن كان بالسوى فاشكُ إليّ.. وإن كان بي أنا فقد قرّت بك الدار. إن راعيت شيئًا من أجله أو من أجلك فما هو المعرفة ولا أنت من المعرفة.. إن انتسبت فأنت لما انتسبت إليه لا لي.. وإن كنت لسبب فأنت للسبب لا لي.. خل المعرفة وراء ظهرك

تخرج من النسب.. وذُم لي في الوقفة تخرج من السبب.. أليت ألاّ أقبلك وأنت ذو سبب أو نسب!

يا ماشطة ارضيلها المقصوص.. وارميلها بين الفروق دبوس. يا ماشطة ارضيلها لبة.. وارميلها بين الفروق دبلة.

وإن طال غيابي كسَري قلمي.. حتى قزاز الحبر يا عقلي.. وإن طال غيابي كسَري لوحي.. حتى قزاز الحبر يا روحي.

قالوا شقيّة قُلث من يومي. قَسّمُوا النّوَايب طِلِغ الكبير كومي.. يا عمود بيتي والعمود هدَوه.. يا هل ترى في بيت مين نصبوه؟ يا عمود بيتي والعمود رخام.. يا هل ترى في بيت مين اتقام؟

نخطئ عندما نحسب أن الموت ما زال أمامنا.. جزء كبير منه قد أصبح خلفنا.. فكل ما ينتسب إلى الماضي يدخل في دائرة الموت.. فهو قريب بما فيه الكفاية كي لا نرتاع من الحياة.

لماذا حين نحزن نبكي، ثم نهز رأسنا يمنة ويسرة، ثم نطأطئ رأسنا، ثم نهزها من جديد يمنة ويسرة؟ لا أدري.. لماذا ننهار ثم نعترض ثم نُسلِّم ثم نعترض من جديد؟ لا أدري.

مُعلّمتي

خديجة أحمد غتوري

- «بحثتُ كثيرًا..

عن عَينَينِ متوهّجتينِ.. مثل عينيك،

وشعرتُ طويلاً بالغُربة..

حتّى أدركتُ..

أنّ توهّجَ عَينَيك وبريقهما يصدُرُ..

من توهّجِ رَوْحِك، فلا عجب أنّني..

لن أجد مثلَك.»

بدأتْ حديثَها بهذه الكلمات في خجلٍ وارتباك، وهي تَفرُك بأناملِها الرّفيعة خُصلات شعرِها الكستنائي الطّويلِ المُنسدِل على كَتِفَيها، ظللتُ أرقُبُها تنطِق بكلمة وتتلجلج في الأخرى، وذلك النّمش الرّقيق يضيف على وجهها إشراقة سحريّة، وعيناها الزّيتونيّتان اللاّمعتان على ضوءِ الشّموعِ تدوران في أرجاء المكان وتأبيان الاستقرار في عينيَ.

ساد الصّمتُ لبِضْعِ ثوانٍ في ذلك الرّكنِ الهادئ من المقهى، حيث نجلس دائمًا على طاولة مستديرة لفردَين، تحيط بنا لوحات حجمها يلائم ما تحمله من صور لعمالقة الفن الجميل، وعلى الحائطِ الخشبي زخارف ذهبيّة تنساب في مثلِ نعومة شعرِها، وعلى الأضواءِ الخافتة فوقنا واهتزاز وهج الشّموع تأمّلتُ ارتباكَها في صمت، وانتظرتُ حتّى نَظرَت إليّ أخيرًا في تساؤل، سألتُها قائلاً: «ألهذا عُدتِ بعد رحيلِك؟»، أجابت في ثبات صادق: «أنا لم أرحل يومًا، خَوْفي كان يدفعني إلى الهروبِ والاختباء، ولكن هيهات، فدائمًا كنت ألتقي

بالفشل، وكلّما نظرتُ في عينيَ أحدِهم تأكّدت أنّي لن أستطيعَ الرحيلَ عن عالمِك».

ابتسمتْ في حبور وقلت بصوتٍ تملؤهُ اللّهفة: «فلتأتِ معي إذن، أتدرين كم أنهكني الإعياءُ بحثًا عنكِ؟ لمَ التغرّب؟! لماذا نبحث عن وطن بينما نعرف أين يطمئنّ القلب؟».

- لا أستطيع، ليس الآن.

- لماذا جئتِ إذن؟!

- أنا لم آتِ، انت من جاء بي إلى هنا.

قلت في عتاب: ها أنتِ تتعلّلين مجدّدًا، طالما أنّكِ ما زلتِ تهربين فلا يحق لكِ الغضب عندما أناديكِ مُعلّلتي.

بدأت ملامِحُها تتحوّل من الخجل والارتباك إلى الغضب، ممّا دفعني إلى إصدار ضحكة عالية لَفَتت انتباهَ الآخرين، فكم أحبّ ملامِحَها عندما تتبدّل فجأة! تسحرُني في كلّ مرّة عندما تبتسم أو تغضب، وعندما تسخر منّي أيضًا وتمازحني.

أشَرْتُ إلى النّادل ففهِم ما أعنيه، وتوجّه بكلّ خفّة وسعادة إلى المسؤول عن موسيقى المقهى، طالبًا منه أن يُطربَ الجميعَ بأُغْنِيَتي المُفضّلة، انتهيت منه والتفتُّ إليها بابتسامة ماكرة، لأجدها تترقّبني في تحفّز وقد فهمت ما سيحدث بعد دقائق، همّت بالرّحيل قبل أن تصلَ الأغنية بنا إلى جملة أكرّرها على مسامِعِها كلّما رأيتها، فهذه الجملة تستفزّها بشكلٍ خاص، قمتُ واقفًا في حركة إيقاعيّة سريعة وفمي يتراقص مع الكلمات

دون إصدار أيَ صَوْت، ومددت يدي تعبيرًا عن رغبتي في رقصة على أنغامِ الموسيقى بين الطاولات، فما حاجتنا إلى ساحة الرقص في مقهى غير مُجهَّز بها؟ أتخيّلنا عندما نرقُص وندور حولهم ويتطاير شعرُها النّاعم ليتناغم مع إيقاع الموسيقى، فيصفّق لنا الجميعُ بعد انتهاء رقصتِنا الأولى والأجمل بين رقصات العالم، رفَضَت بلهجة يغلُب عليها الغيرة: «لن أرقُصَ على موسيقاها، ألا يكفيها مشاركتي فيك لتزاحمني في رقصتي أيضًا؟»، جلستُ قائلاً باستفزاز مُتَعمَّد: «امممممم، هل ما أرى يُطلَق عليه الغيرةُ أم الحبُ.. أم كِلاهما؟»، ردّت باستفزاز مُتَعمَّد هي الأخرى: «فلنختبر درجة غيرتك إذن»، وتلفّتَت حولها بحثًا عمَن ستختار من الرّجال المُحيطين بنا في المقهى، ثمّ أشارت إلى رجل يقرأ أحد الكتبِ الكبيرةِ مُمتلئةِ الصفحات في هدوءٍ وتركيز، تظهر وسامته واضحة رغم عُكوفِه على القراءة، غير آبه بمن حوله، لا يظهر من وجهِه سوى أحد جانبيه، تحرّكت على مقعدها مهدّدة إيايَ بالنهوض وعلى وجهها نظرة مَرِحة تستدعي الضَحك إلى دواخلك، قلت بثقة ضاحكًا: «لن تفعليها، ستكونين بذلك أول امرأة تطلب من رجل أن يراقصها»، ردّت في تحدٍّ: «ومن قال إنّي سأطلب، سوف أذهب للجلوسِ على الطاولة وأبدأ معه الحديث متسائلة عمّا يقرأ، سيُثير ذلك إعجابه»، ثمّ قامت بالفعل وعلى وجهها ذات النّظرة المرحة ووقفت تنظر إليّ، ولكن هذه المرّة

شعرت بتجمّعِ الفقاقيع في رأسي كما تتجمّع على سطح إناء يباشر بالغليان، وأكاد أجزم بأنَ وجهي صار مُلَوّنًا كالزّعفران، قلت بغضب محذّرًا: «أقسم بربّي لو أنَ هذا حدث سأكون أول من يرحل»، تغيّرت ملامِحُها وجلست سريعًا، قالت بهدوء: «ألا تقبل المزاح؟ يبدو أنّني لم أعرف عنك كلّ شيءٍ بَعد»، ظلّ وجهي مُكفَهِرًّا لا أنطِقُ ولا أنظُرُ إليها.

- أنت تخيفُني حقًا، هلّا هدأت من فضلك؟ لم أقصِدْ أن أضايقَك.

لم أستَطِعْ الاستمرار في العبوسِ أمام نبرات صوتها الرّقيقة، فأجَبتُ مبتسمًا: «هناك وسيلة وحيدة لِكَيْ أهدأ»، ضحكت وقالت: «لقد هدأت بالفعل، ولن أرقص إذا كانت تلك هي الوسيلة»، نظرتُ إليها مُستعطِفًا إيّاها فضحكت في خجل وقالت: «ربّما أوافق لو قمتِ من أجلي بـ...»، وقبل أن تُنهِيَ كلامَها بدأ المكان بأكمَلِه في الاهتزاز، وكأنّه زلزالٌ من باطنِ الأرض سيودي بحياتِنا جميعًا، أو قِطارٌ ضخمٌ قد حاد عن طريقه ولا يفصلُهُ عنّا شيء، هزّات عنيفة ترتجّ إثْرِها الطاولات واللوحات وتتأرجح الأضواء يمينًا ويسارًا، قامت مُعلّتي بالنّهوض في فزع وركضت مبتعدة خارج المقهى، أُصِبْت بشلل منعني من القيامِ واللّحاقِ بها، وبدأ صوت مزعج في الظّهور بإلحاح مستمر «يا سيّدي.. يا سيّدي.. يا أستاذ...»، مع كلّ إلحاح من هذا الصّوت الذي أجهل مصدره كانت إضاءة المقهى تَخفُت شيئًا فشيئًا، لا

تستمع إليه؛ سوف يختفي الآن واحتفظ بقوّتِك، ستخرج الآن خلفها بحثًا عنها، فلتتحكّم أنت بالأمر، لا لا لااااا، يا إلهي! اختفى المكانُ السّاحر مع إصرار الصّوت على محوِ كلّ شيء، وبدأ مكان آخر يتّضِح أمامي، أقل بهجة وأكثر ضيقًا من المكان الأوّل، استيقظتُ على تلك الأنغامِ لأمّ كلثوم، تلك التي أوشَكَت أن تشهدَ أجمل رقصة سُرِقَت منّي عُنوة، وبدأت ملامح شخص تتّضِح شيئًا فشيئًا وهو يُحَملِق بي في اندهاش بعينَين سوداوَين وأنف رفيع مُدبّب يكاد يخترقني مثلما اخترق صوته المزعج حلمي، واضعًا يده الثّقيلة على كَتِفي، فأدركت سرَّ القطارِ الشنيع الذي دهسني منذ ثوانٍ، وجدته قادرًا على اختراقي بشتّى الوسائل، وشعرت برغبة عارمة في الانفجار وتحويل مكانه هذا إلى أطلال.

- يا أستاذ.. لقد نمت مرّة أخرى اليوم، مضى نصفُ ساعة ولم تطلُب شيئًا.

قال بصوت مكتوم: لماذا أيقظتني؟ كِدت أرقص مَعَها، ألم أخبرك سابقًا أن تترُكَني نائمًا؟ لماذا تُصرّ على استفزازي يا هذا؟

- وماذا لو كانت المَنِيّة قد وافتك؟ نحن لا نتحمّل مسؤوليّة موت أحد هنا.

- وما شأنك بحياتي تنتهي أم لا؟! اتركني لحالي من فضِلك، هذا آخر تحذير. إذا مِتّ ادفنوني في صمت.

نظر إليّ في ذهول كما لو كنت مختلّ عقليًا، ثمّ

استكمل حديثَه كأنّ شيئًا لم يكُنْ: ماذا ستطلب؟

قلت غاضبًا: أنا ظمآن وليس عندكم ما يروي عطشي.

دفَعَ إليّ بكوبٍ من الماء -كان مستقرًا أمامي- في صمتٍ ودهشة، ثمّ اقترب منّي وهمَس قائلاً: هل أنت بخير يا سيّدي؟

أومَأتُ بوجهي بعيدًا في سخط، أخذ النّادل نَفَسًا عميقًا كاظمًا غيظِه.

- حسنًا يا سيّدي، كما تريد، ولكن هناك مبلغًا ماليًا يدفعه الجميع كحدّ أدنى للجلوسِ في المقهى، أنت لست جديدًا هنا بالطّبع وتعرف ذلك.

- ولْيكُن.

رحل النّادل في خُطى غاضبة لا تمتّ للخفّة والسّعادة بأيّ صلة، وتركني جالسًا وحدي في بؤس رجل فَقَدَ كلَّ ما يملك، أنظرُ إلى كوبِ الماءِ أمامي حيث يبدو آسِنًا وغير جذّاب للشّرب نهائيًا، أو هكذا أراه، حاولت أن أهدّئَ من رَوْعي مُستمِعًا لأنغام كوكب الشرق، وأخرجتُ وَرَقة، سوف أكتُب لفاطمة خِطابًا، ولِمَ لا؟ لا أدري حقًّا كم كتبتُ حتّى الآن، ربّما يُصبح الأخير.

«مُعلّلتي بالوصلِ، والموتُ دونهُ.. إذا مِتّ ظَمآنًا فَلا نَزَل القَطرُ

هل أنا ضَيفُ أحلامِكِ أيضًا، أم كنت مجرّد كومبارس في مشهدٍ تمثيلي تؤدّينه وقد انتهى دورُه؟

هل كنتِ تغضبين من مناداتي إيّاكِ مُعلّلتي لأنّكِ تعرفين

في داخلك أنّ هذا صحيح وتأبين الاعتراف بذلك؟
متى تُمطِر سمائي يا فاطمة؟ متى؟ قَتيلُكِ».

تركتُ الحِسابَ وكذلك الخِطابَ على الطّاولة، ليُصبح مصيرُه مثل بقيّةِ الخطابات، لم تعرف يومًا طريقَها إلى الخارج، وخرجت مُسرعًا من ذلك المقهى الكئيب الخالي من اللّون الكستنائي، وأذُني تتراقص في أسى مع كلمات الأغنية، الشيء الوحيد الحقيقي في هذا المقهى.

شعرتُ بسخونة أشعّة الشّمس بمجرّد خروجي من باب المقهى، وكان قلبي يحترق، فازداد احتراقه عند ملامسة الأشعّة لبشرتي السّمراء، ألَم تَغرُب الشّمسُ بَعَد؟ كنت أظنّ أنّني مكثتُ طويلاً في الدّاخل، ورغم سطوعِها لكنّي شعرت بطبقة رماديّة خفيفة تغطّي كلَّ شيء، كلّ الألوانِ باهتة، لا أرى وجوهًا ولا أميّز أحدًا، لا أسمعُ شيئًا سوى تردُّد أفكاري، لم أشعُر بتلك البهجة التي يُفترَض بأشعّة الشّمس أن تُضيفَها على الوجود، مَشَيتُ شاردًا بين النّاس وعَبرتُ الطّريقَ أمام السيّاراتِ المُسرعة غير آبِهٍ بقُدرَتِها على دهسي بهذه الطّريقةِ التي عَبرتُ بها، ظلَلْتُ شاردًا أفكّر في مُعلّتي، حتّى لمَحَتا عيناي سيّدة مُسِنَة تنظر إليّ نظرة حزن ذات مَغزًى، كأنّها تقرأ أفكاري وتعرف مُصابي بكلّ تفاصيله المؤلمة، استوقفتني نظرتُها رغم شرودي، فهي تذكّرُني بنظرةٍ حانية، كم أشتاقُ إليها! تطلّعتُ إليها في تساؤل ربّما تعرفُني، فابتسَمَتْ في أسى ثمّ أغمَضَت عينَيها كأنّها هي الأخرى تريد الرّحيلَ عن هذا العالم وترفض أن ترى

ما فيه، أعادت نظرتُها إلى ذاكرتي تلك النّصيحة التي تجاهلتها كثيرًا رغم عِلمي يقينًا بصحّتها:

«ملاكي الصّغير، نصيحتي لك فاحفظها طَوَال العُمر، لا تعلّق قلبَك بغيرِه، كلُّنا راحلون فهناك من يرحل عن الدُّنيا وهناك من يرحل عنك في الدُّنيا، أحبب من شئت ولكن تذكّر أنّك مُفارِقُه يومًا ما، هو وحده الباقي، لا شيء يدوم للأبد، لأنّ الدُّنيا زائلة وما يدوم حتّى نهاية العُمر فذلك بفضل ربِّك، فكُنْ على علمٍ بذلك ويقين، لا تعلّق قلبَك بواقعٍ أو خيال، فقط **الله**، فهو سبيلُ النّجاة».

هَمَساتُكِ ما زلتُ أذكرُها يا أمّي، ولكنّي لم أستطِعْ تحقيق وصيّتكِ يا حبيبتي، انفَطَر قلبي يوم رحيلِكِ وها هو ينفَطِر مجدّدًا برحيلِها، لم يَعُد هناك وقتٌ للنّدم، لم تَعُد هناك فرصة للرّجوع، لقد دخلتُ طريقًا بلا علامات فليس لي من سبيلٍ للعودة، أحببتُها ولا أدري أستَلْتقي أم سأظلّ في الطّريق مُنتظرًا أحد السيّارةِ فأستوقفه، ولكن أخشى عندما أستوقف أحدَهم أن أسألَهُ عنها وليس عن الطّريق، هل الحبُّ ذنبٌ يا أمّي؟ هل هي من وحي الخيالِ الحزينِ لا وجود لها، أم أنّها رحَلَت بالفعل، أم أكون أنا من رحل ولكنّ عقلي لم يستطِعْ تقبُّل حقيقة تَرْكي لها فأصابَهُ الهَذَيان؟

وأكادُ أرى عينَيكِ الواسِعَتَين ترمُقاني بنظرةِ لَوْم كلّما نظرتُ في المرآة، فقد ورثتهما عنكِ، وأشعر بيَديكِ الدّافئتين تربتان على كَتِفي ليزول عنّي شعورُ الأسى،

ولكن أيّ الأيادي تُربت الآن وقد رحلتِ؟! كلّ الأرواحِ الطيبة ترحل ولا شيء يدوم.

توقّفَت أفكاري فجأة ونَبَضاتُ قلبي وخُطُواتُ قدميّ، تسمَرتُ في مكاني وتوقّفَ كلُّ شيءٍ لبُرهة سريعةٍ، لَمَحْتُ طيفًا يُشبِهُها وسط الزّحامِ السّائرِ عكس اتّجاهي، لوْنًا مُبهِجًا وسط الضّباب، التفتُّ سريعًا أبحث عنها بعدما أفَقت من صدمتي، هل حقيقٌ ما رأيت يا رامي؟!

لا شيء.. ألوان باهتة من جديد.

تردَّدَت في أذُني مجدّدًا تلك الكلمات من أغْنِيَتي المُفضّلة «أراكَ عصيّ الدمعِ شيمَتُكَ الصبرُ.. أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ؟»، فوقفتُ أبحث عنها كالمجنون غير مُكترِث بنظراتِ النّاسِ، التي بدأت تلاحِظُني في استغراب، ولكن دون جدوى، وأثناء بحثي توقّفتُ فجأة كالذي جاءته لتوّه فكرة عبقريّة لإنقاذ البشريّة، أو كلمات أُغنِيَة يهديها لحبيبتِه، ولَمَعَت عيناي في سعادة واهمة، ربّما أعرف إلى أين يتّجه طيفُها، التفتُّ عائدًا إلى المقهى وقلبي يخْفُقُ بقوّة، طالت المسافة في طريقِ العودة، هل مَشَيتُ كثيرًا لهذه الدّرجة أم أنّ المقهى يبتعد؟ وبعد مسافة طويلة كِذت بسببها أرتاب من وجودِ مقهى بالأساس، وصلتُ أخيرًا ووقفتُ أمامه أخشى الدّخول، قد تحدُث المعجزة ونلتقي ثلاثَتُنا في المقهى وترضى أن تُشاركَها أم كلثوم رقصتَنا على أنغامِها التي لا تفارقني.. تُرى هل تخلّص النّادل من الخِطاب أم سيُكتب له حياةٌ جديدة؟

على باب الجنة

محمد عبد العزيز محمد

دقات قلبه تعلو على صوت خطواته المترددة وهي تصعد درجات السلم، وهو لا يسمع الاثنين، فصوت أغاني أم كلثوم المنبعث كل ليلة من شرفتها يملأ أذنيه ووجدانه، توقف عند بسطة السلم أمام باب الشقة يستجمع أنفاسه وشجاعته، يعيد هندمة ملبسه وكلماته التي أنفق ليالي في انتقائها، طرق الباب فانفتح، لتنساب موسيقى أحد فواصل مقاطع أغنية أم كلثوم من داخل الشقة، فيهتز وجدانه.

ينتبه لصوت المرأة الممسكة بمنديل طويل وهي تعيد سؤالها: خير؟

يزداد ارتباكه، ينبعث صوت من داخل الشقة: من؟ تعيد المرأة الحارسة للباب الصوت: ابن جارتنا.

ينبعث الصوت مجددًا: أدخليه، تُفسِح المرأة المجال لدخوله وتشير له: تفضّل الهانم في هذه الحجرة.

بخطوات مرتبكة يقطع الردهة، فينتشي برائحة بكارة المكان التي تشبه مخازن الكتب في المكتبات العتيقة، ويدلف إلى الحجرة فيراها، امرأة هجرت الأربعينيات، ممتلئة الجسد، متفجرة الأنوثة، خلعت نظارتها ووضعتها على الطاولة المجاورة لمقعدها المطل على الشرفة، بجوار الكاسيت المنساب منه صوت أم كلثوم، طوت الكتاب المُعَنْوَن بحروف أعجمية بأصابعها المكتنزة ناصعة البياض، وأبقت أحدها في وسطه.

- خير؟ هل جارتنا بخير؟ هل من شيء أستطيع تقديمه؟

كمن يستجمع شتات شجاعته: خير.. هي بخير، إنما جئت في موضوع يخصني.

أشارت له بالجلوس وهي تقول: تشرب قهوة معي؟ فقد طلبتها منذ قليل.

أومأ بالموافقة، فعلا صوتها للمرأة بطلب فنجانين من القهوة، ثم استطردت:

- هل تريد فهم شيء في دراستك؟ أعتقد أنك في السنة الأولى في الجامعة.

- لا.. فالدراسة جيدة، ولكنه موضوع خاص أريد مفاتحتك فيه.

نظرت إليه باندهاش: مفاتحتي فيه؟! تكلم ولا تتحرج.

- أنا.. أنا.. أحبك.

انطلقت ضحكاتها فاهتز كل ما فيها، وتلاطم نهداها في حركات موجية، فكادا يفران من محبسيهما، ليسلبا ما تبقى معه من عقل، ونما عن صدر مرمري ناصع، دمعت عيناها وتوردت وجنتاها فصارت كتلة أنثوية مفتنة.

صدحت موسيقى فواصل المقاطع مجددًا، فدخلت المرأة الممسكة بالمنديل تحمل القهوة، تسبقها عبارة: خير اللهم اجعله خير! أكملت عبارتها داخل الغرفة: أضحكيني معك يا هانم.

بصعوبة انتزعت كلماتها من موجة الضحك: خير.. خير.. ضعي القهوة هنا وانصرفي لإكمال مهامك.

غادرت المرأة الحجرة بتلكؤ بعد أن رمقته بنظرة فضولية، تحاول أن تستشف بها سبب بهجة سيدتها الوقورة دومًا.

لم يترك لها فرصة لتدير دفة الحوار، هكذا بدا أنه حاك خطته، فانطلق مكملاً حديثه.

- أعلم فارق السن بيننا وأن لكِ ابنة سافرت مع زوجها، وأنني حاليًا لست ذا إمكانيات مادية تسمح لي بتقديم أشياء ثمينة، ولكن الحب عطاء والغد لي.. أقصد لنا.

- الحب عطاء حقًا، هذا ما يقوله الشعراء والحالمون، لكنهم يخفون نصفه الآخر، فالحب أخذ كما هو عطاء.

- ولكن تأكدي أني سأبذل ما في وسعي لإسعادك.

رَنَت بعينها من مجلسها خلال النافذة إلى القمر المتلألئ في سماء الليل.

- ما أجمل غادة الحب وزهورها السينية.. سنجري معًا على رمال شاطئ البحر الدافئة.. سنتلاصق بجسدينا تحت مظلة واحدة في الشارع تحت المطر.. سنزور أماكن وبلدات غريبة لا نعرف فيها أحدًا، فأكون عنوانك وتكون عنواني وسنتصالح بعد شجارنا.. سنصبح نصفي إلهين عندما نشارك الرب في صنع جسد يهبه روحًا.. لا شعور في هذه الحياة يعادل متعة المرأة وهي تحمل في أحشائها جنينًا، فهي لحظة شعورها باكتمال ذاتها الأنثوية وتراه في أعين الناس.. سأطهو طعامًا مأكولاً قبل إعداده، وسيصبح ليومي بداية ونهاية.

اندفع مقاطعًا استرسالها: فلنتزوج إذن، وأتمنى ألا

ترفضي.

اتسعت حدقة عينها وتيبّست ملامح وجهها على وضع الابتسام، كأنها انتبهت لوجوده الذي تناسته.

انتزعت نفسها من المفاجأة بمد يدها لتناول القهوة، وأشارت له لتناول قهوته.

- ومن قال لك أني سأرفض، ولكن هل مررت بتجربة حب أم هذه أول مرة؟

- تجاربي السابقة هي مجرد إعجاب، وليست مثل شعوري نحوك.

- ومن أين جاءك هذا الشعور؟ لا أذكر أن حديثًا دار بيننا غير أحاديث الجيرة المقتضبة، فكيف وُلِد هذا الشعور؟

- نعم.. ولكنه الحب، لا نعرف متى ولمَ وُلِد.

- معك حق، فالحب يعتمر داخلنا منذ الطفولة ثم يتجلى في عيننا في صورة المحبوب، فالمحبوب مرآة تنعكس عليه، أو بالأدق نعكس عليه صورة الحب الذي في مخيلتنا، وتكون هذه الصورة في أبهى وأنقى تفاصيلها طالما نجهل تفاصيل حياة المحبوب وشخصيته، يكفي أن تتطابق تفصيلة واحدة فيه مع تفاصيل لوحة الحب التي داخلنا، لنعتقد تطابق باقي التفاصيل، وقد تكون هذه التفصيلة ابتسامة أو نظرة أو تصرفًا عفويًا أو ملمحًا جسديًا، وربما تكون تفصيلة أدق، كتفضيله لشيء ما.

- هذا شبيه بقول «الحب بعض من تخيلنا» ولكن هل

معنى ذلك أن الحب خيال ووهم؟

صمتت برهة كأنها تعيد نظم كلماتها، لتصيغ منها عقدًا تزين به رأيها، ثم استكملت حديثها:

- الأمر أعقد من ذلك رغم بساطته، فالمحبوب علبة ألوان يلوّن بها المحب لوحة خُطت في خياله.

- فلماذا يخون المحب أحيانًا أو يهجر رغم أن المحبوب اختياره.

- لأنه لا توجد علبة ألوان تحتوي على كل الألوان، فتهفو نفسه للون من علبة أخرى يجربه على لوحته، ولكنه يكتشف سريعًا أنه لا يمكن انسجام لونين من علبتين على لوحة واحدة، لذلك سيحاول إخفاءه باستعمال مزيد من اللون من إحداهما، ولكن يبقى أثر اللون المخفي مهما حاول، وكذلك كل تجارب الإنسان السابقة.

ابتسم وهو يسايرها: إن كان كذلك فأنت علبة الألوان المناسبة التي ستلون حياتي، أقصد لوحتي.

- ربما أعجبك لونًا فيها، ولكن ليس في العلبة ألوان كافية ومناسِبة لتلوين باقي عناصر لوحتك.

امتعض وجهه وبدأ يشعر بفقدان دفة الحوار، فاستطردت سريعًا:

- حسنًا دعنا من هذا، هل تحب قراءة الكتب؟

- قراءة الكتب لم تعد هي مصدر الثقافة، فقد تطور العالم وأصبحنا في عصر المعلومات السريعة.

يبدو أن إجابته أعطته شجاعة أن يعيد الكر على

حيث ظن أنه موضع انكساره في الحديث، فبادر بسؤالها:

- وكيف تكون نهاية الحب ومنتهاه إن صح وصحت؟

تنهدت وكأنها سُئِلت أو سألت ذلك السؤال من قبل: الرضا.

- فلمَ تريدين أن تحرميني منه وقد رضيت باختياري لك.

ابتسمت: ذلك منتهاه لا مبتدؤه.. حسنًا فليكن لك ما تريد، ولكن لي شرطين.

اكتسى وجهه بملامح الموشك على النصر بعد ظن الخذلان، وصار صوته أكثر جُشّة وجدية وهو يقول: موافق.

- الأول أن يكون هذا الأمر بيننا سرًا لعامين ثم نتخذ بعدهما قرارًا نهائيًا بالارتباط أو الصداقة، والثاني كل شهر سأعطيك خمسة كتب لتقرأها ونتناقش فيها معًا.

- موافق.. وفي خلال العامين ستتيقني من صدق مشاعري ورغبتي، ولكن ما علاقة الشرط الثاني بزواجنا؟

- تعلم فارق السن والخبرة بيننا، وكل كتاب سواء أدب أو فلسفة أو علم هو حياة لشخص، فبمقدار الكتب التي نقرؤها نعيش حيوات نكتسب خلالها خبرات، وعندما ننتهي من إحداها فإننا نعود لحياتنا وقد تغيرت نظرتنا وآراؤنا في الحياة ولها لتغير خبراتنا.

لم يُرِد إفساد لحظة انتصاره وإعلان تحوله من إنسان

غير مميز إلى إنسان رجل بامتلاكه قلب امرأة، فأومأ بالموافقة تأكيدًا لمنطقها، لم يفهم لماذا ردت على إيماءته بابتسامة.

أشارت إلى مجموعة من الكتب، مسرح وفلسفة ورواية وشعر، وكتاب بلغة أجنبية، وشريط لأغنية ألف ليلة وليلة، فالتقطها، أعاد واقفًا النظر في العناوين محاولاً عبثًا أن يجد رابطًا بينها، ثم أردف قائلاً: كتب رائعة، ولكن ما علاقة أغاني أم كلثوم بها؟ وما سر ولعك بها؟

تناولت نظارتها، وأيقظت الكتاب القابع بين أصابعها وهي تقول: هذه ليست أغاني بل لوحات.. لقاؤنا الشهر القادم.

حمل الكتب مغادرًا الحجرة بخطوات تملؤها ثقة المنتصر، والتفت ليملي عينه منها قبل المغادرة، فوجدها عادت للقراءة

وتبتسم إبتسامة لم يفهم معناها.

***

«هنيئًا للذي أخد عقلك» انتزعته عبارتها من خضم تداعي الذكريات، فانسحبت ابتسامة المُدرِك لسذاجته من وجهه، وهي تضع القهوة على الطاولة، التي تتوسط المقعدين في البلكونة، بجوار الكاسيت المنساب منه صوت أم كلثوم، وبجواره كتاب.

التفت إليها قائلاً: هو فيه غيرك يا جميل القد؟!

أطلقت ضحكة يملؤها عبير الدلال الأنثوي، واهتز

جسدها المكتنز، وتماوج نهداها، ناولته فنجان القهوة وجلست وهي تقول: يا رجل سلامة نظرك! أربعين عامًا منذ زواجنا وقد جاوزت الستين وأنا ألامسها، وما زالت حلاوة لسانك كأول أيام لقائنا، من أين تاتي بهذا الكلام؟!

رشف رشفة من القهوة قائلاً: **الله!** من الست.

يا حبيبي.. الليل وسماه.. ونجومه وقمره وسهره وإنت وأنا يا حبيبي أنا.. يا حياتي أنا

كلنا كلنا في الحب سوا

والهوى.. آه منه الهوى سهران الهوى.. يسقينا الهنا.. ويقول بالهنا

- يا رجل.. أصغر ابنائنا زواجه بعد أسبوع.

- وماله؟ نجيب واحد جديد ونقول للزمان ارجع يا زمان.

أطلقت ضحكة ثانية: نفسي أعرف ما هو سر الست والكتب والليل معاك.

- ست مين؟ هي رضوانة!

اتسعت حدقتها وعلت وجهها ابتسامة اندهاش: رضوانة!

- نعم.. الحب جنة وهي رضوانة على بابه.

تعالت ضحكتها مغردة لتشيع في الليل عطرًا فوّاحًا: احكي احكي رضوانة، وهل أدخلتك الجنة؟ وماذا رأيت في الجنة؟

أعقبت جملتها بضحكة انتظار بينما يدها تدور في

الهواء تستحثه على الإجابة.

بسط راحتي كفيه في مواجهتها ثم باعد بينهما كأنه يفتح ستارة مسرح الذكريات.

- فتحت لي باب الجنة وقابلت ملاكًا دلّني على أجمل حورية.

- حورية؟! ولماذا عدت للأرض؟ هل هناك عاقل يدخل الجنة يرجع الأرض؟

- لأن أجمل حورية كانت على الأرض.

ساد وجهها حالة من الدلال المنتقب بالغيظ: ولماذا تزوجتني ولم تتزوجها؟

- هي أنتِ يا كامل الأوصاف يا خفيف الظل.

أفق خفيف الظل هذا السحر
نادى دع النوم وناغ الوتر
فما أطال النوم عمرًا ولا
قصّر في الأعمار طول السهر
فكم توالى الليل بعد النهار
وطال بالأنجم هذا المدار

تعالت ضحكاتها وهي تمد يدها له في الهواء: كفاية كفاية! لقد تقاسم الليل والست عقلك، لقد أوشكت الشمس على الشروق؛ انهض لتنام، فلا علاج من حالتك إلا بالنوم، فربما رُدّ لك بعض عقلك.

أمسك يدها وقبّلها كعاشق، وضمها لصدره وهو ينهض، وأخذ يردد كلمات الأغنية التي توشك على النهاية، بينما تتماوج ضحكتها وهما في طريقهما للمرقد.

يا حبيبي.. يلا نعيش في عيون الليل
ونقول للشمس تعالي بعد سنة
مش قبل سنة.. دي ليلة حب حلوه بألف ليلة وليلة
بكل العمر.. هو العمر إيه غير ليلة زي الليلة.

ليثيوم lithium

شيرين جمال الدين عبد اللطيف

تلامست أيدينا وأصبحت أرواحنا تطفو مع صوت الموسيقى.. كانت مقطوعة لفريدريك شوبين، تراقصت أصوات ضربات يديّ بالبيانو مع سحر جسدها العاري.. تركتني وقامت لترقص وتدور في الغرفة بحرير أحمر ينساب مع حركة دورانها.. خُيّل إليّ بأن روحها قد فارقتني وفارقت تلك الغرفة وهذا العالم البائس، تدور وكأنها تمارس الشعائر الصوفية ثم تتوقف وتنظر إليّ.. فتبتسم.

اقتربت من أذني وهمست: «كل عام وأنت العمر يا حبيب العمر كله» قاطعنا انتهاء المقطوعة، فقمت لإعادة تشغيلها، حين أباحت حبيبتي بأني تغيرت وصرت أهوى الصمت والسكون، حتى أنها لم تعد تفهم لغة عينيّ الجديدة. حاولث الإنكار ولكن قولها كان أصدق من أن يُكَذّب أو يُنكَر.. عاودَث الحديث وقالت: ظننت أن تلك التجربة قد انتهت، أو بمعنى أصح قد انتهيت أنت منها وتجاوزت كل ما تعلق بها.

قلت: تجاوزتها بالفعل.

قالت: لهذا تغيرت؟

قلت: ليس بتغيير.

قالت: إذن ما هو؟

قلت: تستطيعين القول بأن الشاعر لم يعد يهوى الكلمات، أو تركته الكلمات وهربت من فمه.

قالت: وهل أنا الكلمات؟

قلت: لا .. بل الحياة هي.

صمتت وكانت ملامح القلق تُرسَم على وجهها.

قلت: أخبريني يا عزيزتي.. هل يعشق المرء حتى بعد توقف قلبه عن الخفقان؟

نظرت إليَ وكأنها تحاول أن تفهم ما أريده، ثم قالت:

- وما توقف الخفقان إلا بسبب الفراق والحب!

ابتسمت ثم أخبرتها بأن تسمعني جيدًا، على الرغم مما يقوله البعض عن العشق، لكنه يتخذ سُبلاً مختلفة، فلا ينتهي العشق بين متحابين في ليلة واحدة، إنما قد يتخذ شكلاً آخر. ومع سوء الفهم من أحد الطرفين قد يُقتل -رغمًا عنه أو غير واعٍ- هذا الشكل الجديد من العشق. وإن كلمة العشق لا تقتصر فقط على اثنين، فقد تكون بين شخص وشيء ما، مثل حالة العشق والغرام بين الموسيقار وأداته، بين الفنان وريشته، بين الشاعر وبحور الكلمات والأحرف. إذن العشق الذي كان بيني وبين الحياة قد اتخذ شكلاً آخر، وتستطعين القول بأني أحاول تجنب جنونه.

قالت: وكيف يكون جنون الحياة؟

قلت: جنونها يتمثل في الإيهام.. توهمك بشيء ما وتجدين الحقيقة شيئًا آخر.

فمنذ عشرين عامًا أحببت فتاة.. ولم تكن كأي فتاة قد عرفتها طيلة حياتي.. كانت مميزة وغريبة أيضًا، لها سحر خاص بها، أتعرفين؟ هناك ملامح تُنسى وملامح

يختذلها العمر في كل شيء، بعد الفراق كنت أراها في أوراق الجريدة، في كوب القهوة، في غرفتي؛ رحلت وبصماتها ما زالت عالقة بي.. أصبحت الشوارع خالية من المارة بغيابها، حتى الطعام فقد لذته.. لا أعرف.. كان كل شيء متعلقًا بها ويرجع إليها ويدور حولها.. مهما ازدادت متاهات الحياة كانت هي المَخرَج والملاذ الوحيد. أيعقل أن يعشق المرء إلى حد الجنون؟ لا أكذب عليكِ إن أخبرتك بأنها باتت ذكرى لقصة حب عابرة أو فاشلة، فأحيانًا يا عزيزتي الحنين يقتلني والرغبة تلحّ عليَ بإيجاد أي وسيلة اتصال بها، لكن أخذها الموت مني.

قالت: وكيف كانت علاقتكما؟

قلت: بالرغم من أننا كنا كالمشارق والمغارب لكننا تلاقينا في بعض الحدود، كانت عاشقة للفن، وكنت أنا حينها قد تخرجت حديثًا وأبحث عن عمل، قالت لى في اللقاء الأخير وأتذكر قولها: «نعم أصبحنا عاشقين وداعبنا الحب والغرام، لكن لكل شهوة زمن لذتها»، وداهمنا العمر بالرحيل والعشق بيننا صار مُحالاً، لا تأخذي قراري على أنه نابع من أنانية مفرطة، لكن أصبحت أوجهتنا متفرقة، يمكننا طمس سنواتنا معًا حتى لا يصبح الفراق أمرًا مؤلمًا.. وتفارقنا، ولكني احتفظت بكل شيء متعلق بها.. رسائلها وصورها في إحدى المذكرات.

قالت: أريد رؤيتها.

قالت وكانت علامات الشكر قد غلبت عليّ: لونها أسود .. كأيام الفراق.

قالت : تقول بأنكما كنتما كالمشارق والمغارب.. كيف يلقتي قلبان برغم الفروق بينهما؟ ألا تكون لذة الحب فى التشابه؟

قلت: تشابهنا في حبنا للفن فقط .. كما تعلمين كنت أمارس فنون الشعر، وأحببت الموسيقي، ولكن في اعتقادي أن الحب الحقيقي يكمن فى التكامل وليس التشابه.

قالت: لا أوافقك في ذلك.

قلت ضاحكًا: ومنذ متى توافقينى في الرأي؟

قالت: صحيح!

قلت: أخبريني كيف تتوقعين حياة بها متعة وسعادة وتحرر إن كنتِ أسيرة مجموعة أفكار أو طرق تفكير معينة، ومن حولك يشاركونك نفس السبل؟

قالت: بالنسبة إليّ.. فأنا ألتمس الراحة النفسية.

قالت : لا أظن أنه يوجد راحة للنفس.

قالت: لماذا تميل دائمًا للتفلسف؟

قلت: أنا لا أفعل.

قالت: الحياة أبسط من ذلك بكثير.. أنت تحاول أن تجد علل وأسباب الأشياء، ثم تقوم بتحليلات كثيرة.. ومن ثم تحدثني عن المتعة!

قالت: لأن المتعة في مفهومي غير مفهومك لها.

قالت: ارأيت؟!

ضحكت وأشرت لها بأن تناولني كأسًا.

قالت: إذن أخبرني أين تكون مذكرتك؟

قلت: في مكتبي.

فذهبث هي للبحث عنها، فأخذت في التفتيش بين كتبه وفي أدراجه حتى وجدت واحدة، وكانت هي المنشودة.. كانت سوداء اللون وصفحاتها توحي بمرور الكثير من الأحداث عليها، حتى مالت إلى الاصفرار.. والصور القديمة أطرافها ممزقة، وخطوطه التي كانت توحي بالعذاب، حتى القلم أبى الانفراد بالإبداع فشاركه المحنة، وفي كل أثر من القلم على الورقة تُزفّ حقيقة جديدة، وهي أن الحياة بدونها كانت الجحيم والهلاك كله. بدأت في تصفحها بدايةً من الصفحة الأخيرة أرادت التأكد بأن الفراق قد تم.

احتوت الأخيرة على صورة لمكان ما مكتوب تحته «موطن الفراق» ثم في أواخر الورقة كتبت تلك الكلمات: «يا شيء مني ضاع.. ولاح ضمن ظروف الحياة، لا تلحّ عليّ بالبقاء، فقد هجرت ذكراك ورؤياك ودنياي لم تعد دنياك. لا يُقاس وجع الفراق بعدد حبات الدمع، فأدمعي لأنها غالية تُمنع -رغمًا عنها- منعًا».

ثم تصفحت ياقي الأوراق حتى وجدت كلمات تعكس التناقض بين روايته التي قالها وماكان يدوّنه.

من الغريب أن يكذب.. فاتجهت إلي الصفحات الأولي وقررت البدء بهدوء وتمهل.

الصفحة الأولى:

رأيتك في إحدى الحفلات وكنتِ يا عزيزتي رائعة الجمال، ولكن كيف الوصول إليك؟

الصفحة الثانية:

اشتريت تذكرة لحفلتك لعل أعيننا تلتقي، وتشعرين بذلك الشحاذ المسكين الذي ينتظر بقشيشك من الحب على ذلك الرصيف البارد.

الصفحة الثالثة:

أيمكن أن تجمعنا الصدف؟

الصفحة الرابعة:

لا تبخلي بالعمر عليّ.. فكلنا راحلون رغم ملذات الحياة.

تسارعت فى تصفَح باقي الصفحات، حتى وجدت اليوم الأول للقاء، وكانت في الصفحة الخامسة والعشرين حيث كتب بها:

أيعقل ان أعد تلك الشهور من رغبتي فيكِ.. تأتين إليّ بتلك السهولة؟ أيعقل ذلك؟

تعرفت عليك من خلال صديق لي قديم، لو كنت اعرف علاقته بك للازمته مدى الساعات.

الصفحة الثلاثون:

أصبحنا مقرَّبين؛ يا حبيبي وأعرف أنك تدركين حبي

لك، ولكنك تتظاهرين بعمى البصر.

الصفحة الخامسون:

قالوا بأنك تزوجتِ الفن.. وقررتِ مقاطعة الحب إلا في أغانيكِ.

الصفحة الخامسة والخمسون:

جئتِ إليّ يا حبيبتي.. إذن فلنُعلن حالة العشق.

الصفحة الستون:

أيها الوقت.. **بالله**.. بالحب.. بالعشق.. أبطئ سرعتك فأنا لا أملّ منها ولا أشبع.

حبيبان نحن والمكان يشهد.. أحبك يا أجمل صوت خُلق وأجمل واحة احتضنت الورود. حبيبتي .. أحبك.. أين الأوطان؟

وإن كان الإيمان بالغرام وهمًا وكنت أنت وطني ووهمي..

اتجهنا اليوم إلى زيارة أحد الأصدقاء وكانت حاضرة.. وكانت جلسة أدبية وفنية. أخذ الحضور الذين لم يزدَد عددهم عن العشرين في المحاولة لجعلها تغني، وكانت حبيبتي ترفض بحياء مبررة بأن الجلسة لا تحتاج إلى غناء؛ أصرّوا واشتد الحماس حتى وافقت، وأخذت تغني. حيرت قلبي معاك وأنا بداري وأخبّي... انتهت وطال تصفيق الحضور الملتهب عشقًا؛ حيّتهم وابتسمت، ثم اتجهت نحوي وجلست. أخذنا نتبادل الحديث الذي دام نحو ساعة. ساعة أنا وهي فقط

نتحدث. تأخر الوقت فأخبرتها بأني سأوصلها في طريقي، لم تُبدِ أي اعتراض، فجاءت وأخذنا الطريق سيرًا، وهنا اعترفتُ لها بحبي الدفين، أخبرتني بأنها تبادلني نفس الشعور، ولكنها تخشى الحب.

سقطت ورقة من بين صفحات المذكرة، قامت بفتحها، فوجدت أسماء غريبة تقريبًا تشير إلى أسماء بعض الأدوية، وهناك نوع من الشخبطة التي تخفي اسم الطبيب والعنوان. اتجهت إلى جهاز الكمبيوتر وأخذت تكتب تلك الأسماء وانتظرت تحميل الصفحة...

الصفحة السبعون:

اليوم كان الفراق الثاني لنا.. حين أخذك الموت مني ومن كل محبيكِ.

اليوم الثالث من شهر فبراير ١٩٧٥ رحلت عن دنياي، ولم يعد في وسع هذا القلب تحمل ذلك العذاب.

وداعاً يا حبيبي.. أراكِ في الآخرة.

في انتظار تحميل الصفحة كان تاريخ الوفاة مألوفًا لديها، ولكن أيعقل أن تكون هذه صدفة بحتة؟ مستحيل أن تكون هي حبيبته، لأنه كان طفلاً حين كانت مطربة، أم أنه مجرد تشابه تواريخ ونفس التاريخ الفني؟ أيعقل أن تكون هي؟ تم تحميل الصفحة ووجدت أسماء الأدوية ودواعي استخدامها، وكان مكتوبًا الآتي: «ليثيوم.. دواعي الاستخدام في حالات الانفصام عن الواقع والأمراض العقلية».

اتجهت إلى غرفتهما وقامت بفتح الباب، كان لا يزال مستيقظًا.

قالت: أيمكنني سؤالك؟

قال: أكيد.

قالت: من كانت حبيبتك؟

قال: ولِمَ تريدين المعرفة؟

قالت: الفضول يقتلني.

قال: كانت كوكب الشرق.

صممت قليلاً وقالت: ماذا؟!

قال بابتسامة: حبيبتي كانت أم كلثوم.

المقهَى

أحمد أبوزيد مرسي أبوزيد

في أقصى اليمين من المقهى القديم جلس رجب في هدوء تام.. رجب رجل أربعيني أصلع الشعر، تحمرّ عيناه دائمًا وأبدًا، فهو قليل النوم.. عاشق للسهر في أحضان تلك المدينة الساهرة دائمًا وأبدًا، يرتدي ملابس تبدو قديمة، وتخبرك بلا شك أنه يعمل في إحدى المهن الحرفية، فقد بدت عليها آثار الغبار والإعياء، وقد خرج قميصة المهلهل خارج بنطاله وهو يغطي جزءًا كبيرًا من قدميه، وكأنه ليس له، يضع على المنضدة بجانبه حلقة من المفاتيح التي لا تستطيع تمييز عددها للوهلة الأولى.. أحجام كثيرة وأشكال متعددة. علبتا سجائره والثقاب تثقلان جيب قميصه الأيسر، وفي الجيب أوراق صغيرة وقلم وأشياء أخرى، تجعله يكاد يصل إلى منتصف صدره، الذي قد أثقلته الهموم، مثلما أثقلته تلك الأشياء في جيبه، ثلاثة خطوط متوازية متعرجة قد حفرت في جبينه، وهالة سوداء تبدو أثرًا لحادث قديم ترك رسالته فوق عينه اليمنى.. وفي أعماق تلك الرأس الصلعاء زحام شديد، وكثير من الأحداث والذكريات والأفكار تتصارع في سباق أشبه بقطيع من الأبقار الوحشية تغدو في غابات إفريقيا الجافة.. ترتكز عيناه على ذلك المذياع في أعلى اليسار، فوق رفٍّ خشبي متهالك، يستقر تحته كرسي المعلم عطية صاحب المقهى.. رجل سمين تتسم ملامحة بالطيبة والعظمة، يرتدي جلبابًا رماديًا أنيقًا، وتغطي رأسه عمامة رمادية يكسوها شال ناصع البياض، وشاربه الكث يكاد يخفي

فمه.. وقد جلس في انسجام يتابع الجملة الأخيرة من المقدمة الموسيقية لأغنية «سيرة الحب»

ودخان نارجيلته١ يعانق أوتار القصبجي٢، وأنفاسه تلاحق أنفاس سالم٣. فالناي والنارجيلة يتنافسان في إشباع رأس المعلم عطية. بينما جلس عبده الفكهاني إلى جانب المعلم عطية يتمايل يمينًا ويسارًا برأسه ويديه، متفاعلاً مع صوت ثومة، الذي يملأ المكان برومانسية طاغية، بعد أن أنهت موال الأغنية الأول.

«طول عمري بقول.. لا أنا قد الشوق.. وليالي الشوق.. ولا قلبي قد عذابه».

يقف عماد القهوجي أمام رجب في حماس، ويضع قدحًا من الشاي الثقيل وكوبًا من الماء على المنضدة في عجالة، وهو شاب في عِقده الثلاثين، بشوش الوجه، كثير المزح، وهزيل الجسم، ويتحرك سريعًا في اتجاه الأستاذ ممدوح مدرس اللغة العربية الذي يجلس إلى منضدة بجوار رجب.

- اؤمرني يا أستاذنا.

- قهوة مظبوط وحياتك يا عمدة.

- هوا.. وعندك واحد مظبوووط للأستاذ ممدوح.

يتحرك عماد بنفس الحماس في اتجاه زبون آخر، بينما يقلّب رجب قدح الشاي، ويذوب السكر ومعه يذوب رجب في كلمات عزيز٤:

«وقابلتك إنت.. لقيتك.. بتغيّر كل حياتي.. معرفش إزاي أنا حبيبتك...».

ويرشف رجب رشفة التذوق المعهودة، ثم يضع القدح على المنضدة من جديد، ويومئ برأسه في نشوى إيماءة رضا عن قدح الشاي، ويمد يديه في جيبه الأيسر مخرجًا علبة السجائر وعلبة الثقاب، ويخرج سيجارته وعودًا من الثقاب ويشعله، ثم يشعل سيجارته، ورأسه يتمايل راسمًا ملامح العاشق المتيم.

١-نارجيلة: الاسم العربي للشيشة.

٢-القصبجي: محمد القصبجي، عازف العود في فرقة أم كلثوم.

٣-سالم: سيد سالم، عازف الناي الوحيد في فرقة أم كلثوم.

٤-عزيز: مرسي جميل عزيز، كاتب كلمات أغنية سيرة الحب.

«من همسة حب لقيتني بحب.. لقيتني بحب وأدوب ف الحب».

يستنشق رجب دخان سيجارته في عشق.. ويخرج دخانه راسمًا هالة كبيرة من الحزن، تمر في انسيابية إلى الأستاذ ممدوح، الذي يبتسم في انكسار مُحدّثًا رجب:

- محدش بياخد أكتر من نصيبه يا عم رجب.. متسودهاش أوي كده.

بينما يضع رجب علبتيه على المنضدة، يرفع يديه مشيرًا إلى ممدوح أن يتركه وشأنه.

- بقولك إيه.. وحياة أبوك سيبني في حالي.. خلينا نسمع الست ومتقلّبش علينا المواجع أكتر ما هي متقلبة.

- خلاص.. خلاص.. متزعلش يا سيدي.

ويتجه ممدوح بعينيه إلى المذياع في شغف.

- قولي يا ست.. قولي.

«فات.. من عمري سنين.. وسنين.. شفت كتير وقليل عاشقين».

إلى جوار الأستاذ ممدوح على نفس المنضدة يجلس الحاج ناجي العرضحالجي، ذو النظارة السميكة، والذي اشتهر باسم «أبو نضارة» لما تاخذه نظارته من حيز كبير من وجهه المستطيل النحيف، والذي اعتاد أن يقضي ليلة الخميس الأول من كل شهر على هذا الكرسي المواجه لمذياع المقهى، لمتابعة كوكب الشرق أثناء قراءته لجريدة الأهرام، حيث إنه -كما يردد دائمًا- لا يستمتع بقراءة الأهرام إلا على صوت الست، فهو لا يغادر خبرًا أو مقالاً غلا واستمعن في قراءته بالتفصيل الممل، وقد يكرر ذلك مرات ومرات، حتى يصل إلى صفحة الأبراج، والتي يشعر عندها دائمًا أنها مبتغاه الأساسي من قراءة الجريدة، كي يبني عليها كل تفاصيل حياته للشهر المقبل، بعد أن يجهز على مربع الكلمات المتقاطعة باحترافية لا مثيل لها. وقد ارتكزت عيناه على برج الحمل، وذكر الطالع أن أصحاب برج الحمل الأكثر حظًا هذه الليلة؛ ترتسم على وجهه

ابتسامة تفاؤل مُحدثًا الأستاذ ممدوح:

- بيقولك الأكثر حظا هذه الليلة.. يا كريم يا رب!

يلتفت ممدوح بعينيه إلى تلك النافذة المغلقة أعلى البيت المواجه للمقهى، ثم يستدير بوجهه إلى الحاج ناجي مبتسمًا في خبث:

- مشكلتك إنك بتصدق الأبراج يا حاج ناجي، عمومًا.. ربنا يفتحها عليك وينوّلك اللي ف بالك.

- آمين يا رب! والنبي لو حصل يا أستاذنا لك الحلاوة.

- يا رب يا حاج.. كله على **الله**.

«أهل الحب صحيح مساكين.. صحيح مساكين».

يدخل إلى المقهى ثلاثة شباب في أعمار متقاربة، ما بين العشرين والثالثة والعشرين، وقد تعالت ضحكاتهم، ويسحبون كراسي المنضدة إلى يمين رجب ويجلسون في صخب، وقد تسببوا في حالة من الهرج في المقهى، وأصواتهم وهم يتجاذبون الحديث قد أخلّت بنظام المقهى المُقدس احترامًا لصوت ثومة في تلك الليلة من كل شهر.. نعم.. إنه الخميس الأول.. من شهر ديسمبر ١٩٦٤، وقد اعتاد المعلم عطية احترام تلك الليلة احترامًا شديدًا، فتشعر وكأنك في مكان مقدس.. إنه «حرم الست» كما يسميه المعلم عطية.

وهنا ينادي ناصر (أحد الشباب الثلاثة) على عماد، بصوته الذي يقطع رومانسية الحالة:

- الزبادي يا عمدة.. يا عمدة.. الزبادي والطاولة.

وهنا يهرول عماد بسرعة في اتجاه ناصر، مشيرًا

بيديه بحركات تعني الهدوء، ويصل إلى منضدة الشباب.

- لأ.. لأ.. طاولة إيه يا باشمهندسين؟! إنتو عاوزين المعلم يطردني؟!

- ليه يا عمدة؟ هو إنتو منعتوا الطاولة ولا إيه؟

- ولا منعنا ولا حاجة.. بس النهارده الخميس، والست بتغني؛ هتبقى ليلتي سودا لو قشاط واحد رن في القهوة.

يلتفت إليه فتحي بعد أن كان منهمكًا في إحكام رباط حذائه.. ويحدثه بثقة:

- ليه العكننة دي بس ع المسا يا عمدة؟ هاتها بس وملكش دعوة.

- مقدرش.. مقدرش.. أبوس إيدك لم الدور يا عم فتحي وخلي الليلة تعدي على خير.. الشهر اللي فات كسر على دماغي الكوبايات وحاسبني عليها كمان.. سايق عليكو النبي تتكلوا على **الله** دلوقتي.

- يووووووه! طب اجري هات الزبادي.. (في غضب شديد) غور.

- عيني يا عمنا.. وعندك ٣ لبن على كيفك.. واتوصى بالرجالة.

يلتفت المعلم عطية إلى المشهد في اشمئزاز، محدثًا عبده، وقد بدت عليه علامات الحزن والأسى:

زمان.. (تلمع عيناه وقد تذكر ما مضى من زمن جميل) زمان بقى.. لما كانت الست تهل ع المرسح، تلاقي كله سكتم بكتم.. ولا نفس.. وترمي الإبرة ترن في

المحروسه تِمَّن. طب وربنا كنت بحس إن الناس بطلت تتنفس. وبس تخلص الوصلة من هنا وتلاقي العالم إيديها بتتقطع م التصقيف.. وعمك الطحان١ بقى يفضل يقولها أعد.. أعد.. وعظمة على عظمة يا ست.. ياه ع الأيام! كان الواحد مننا يحس إن الست بتغنيله هو لوحده.. ولا كأن فيه آلاف وملايين بيسمعوها معاه.. هيييه (يتنهد تنهيدة عميقة) دنيا يا عم عبده! دلوقتي الواحد من دول يسمعلك إشي إفرنجي، وإشي هندي. والست تغني

١-الطحان: الحاج حسين الطحان، أحد التجار المعروفين، وكان يداوم على حضور حفلات أم كلثوم عشرات السنين، وكان مكانه في المسرح محجوزًا دائمًا له.. الصف الأول أمام الست مباشرة.

يقولك طاولة وزبادي. الدنيا اتغيرت يا عم عبده!

يبتسم عبده في هدوء وقد امتلأت عيناه بالدموع.

- ياه يا معلم! إنت بتقول فيها؟ الواحد مننا يسمع عفئة الست من هنا ولاّ آهه من آهاتها يحس إنه في دنيا تانية.

«إلا عيونك إنت.. دول بس اللي خدوني خدوني.. وبحبك أمروني».

ينظر رجب إلى ممدوح ويحدثه في حزن شديد، وقد بدت عليه رغبة شديدة في الفضفضة، بينما يصل عماد إلى منضدة الأستاذ ممدوح ليقدم له فنجان القهوة

وكوبًا من الماء، ليضعهما على المنضدة ثم ينصرف في هدوء، فيستقبل ممدوح رشفته الأولى من قهوته، وتقع عيناه على رجب، الذي ما زال ينظر إليه وقد امتزجت نظرته بصوت الست.

«أمروني أحب لقيتني بحب.. لقيتني بحب وأدوب في الحب».

ينتهي ممدوح من رشفته الأولى ويعيد فنجانه إلى المنضدة، ناظرًا إلى رجب في عطف شديد، بينما تنهي الست جملتها، فينادي الطحان هاتفًا مخترقًا صخب التصفيق بأعلى صوته من خلال المذياع.

- م الأول يا ست.. م الأول.

تبدأ الفرقة الموسيقية في عزف المقطع الأخير من جديد، فتهوي الست على قلوب المستمعين جميعًا بكلمات لا تغادر قلبًا إلا وقد أثارت فيه مشاعر الحب والحزن والفرح في آن واحد، ثم تنال منهم جميعًا في جملة من أروع ما كتب عزيز:

«ياما الحب نده على قلبي.. مردّش قلبي جواب.. ياما الشوق حاول يحايلني.. وأقوله روح يا عذاب».

يسحب ممدوح كرسيه في اتجاه كرسي رجب، ممسكًا بفنجان القهوة ويضعه على منضدة رجب، ثم يمد يده إلى علبة السجائر ليسحب سيجارة، ثم يمد يده فيأخذ سيجارة رجب من يده والتي أوشك أن يرفعها إلى فمه، فيبتسم ممدوح بينما يشهد رجب قبلة بين السيجارتين في فم ممدوح، الذي آثر أن يشعل سيجارته من

سيجارة رجب على أن يحصل على عود ثقاب جديد، وهنا يبتسم رجب أيضًا بعد أن كاد ينفعل على ممدوح ويداعبه بابتسامة حالمة.

- نفسي افرح بيك وإنت شاري علبة سجاير.

- منين يا عم رجب؟ ما إنت عارف وأنا عارف.

يصمت ممدوح قليلاً وقد نال من سيجارته أنفاسًا عدة، بينما يسراه ما زالت تحمل سيجارة رجب، ثم يتنهد تنهيدة طويلة تكاد تشق صدره.

- مالك يا عم رجب؟ حالك مش عاجبني.

يرفع رجب رأسه إلى ممدوح، وقد أصابه سؤال ممدوح في قلبه، ويمد يده إلى سيجارته في يد ممدوح، فيسحبها إلى فمه مباشرة.

ويسحب منها نفسًا طويلاً، فيخرج دخانه بكثافة تغطي رؤيته لوجه ممدوح، ثم ينفخ في الدخان بقوة ليتناثر ويتلاشى الدخان كاشفًا عن وجه ممدوح، الذي أصابته شَرَقة، وأخذ يسعل بشدة عدة مرات، بينما يحاول التحدث. ثم يمد رجب يده إلى كوب الماء على المنضدة، فيناوله إلى ممدوح الذي أخذ بدوره الكوب وأخذ يشرب من الماء في توتر، حتى تساقطت المياه على ملابسه، ثم يضع كوب الماء على المنضدة مستنشقًا نفسًا عميقًا.. بينما رجب غارق في ضحكات عابثة.

- ده إنت طلعت خفيف أهو يا أستاذنا.

- وإنت دمك تقيل يا رجب.. **الله** يسامحك! نَفَسي

اتقطع.

- بتشربوها ليه لما إنتو مش قدها؟ يا سلام! عظمة على عظمة يا ست!

قالها رجب وقد امتزجت ضحكاته بالدخان وبصوت ثومة، راسمة لوحة من الحزن المشتعل بدخان السيجارة ذائبًا في كلمات تخطف القلوب، ولم يعد يعي ممدوح حالة رجب إن كان ضاحكًا أم باكيًا أم تائهًا في ظلمات مشاعره غير المفهومة.

«يا سلام ع القلب وتنهيده.. ف وصال وفراق».

يصل عماد إلى منضدة الشبان الثلاثة ويحمل في يديه صنية عليها أكواب من الماء ومشروب الزبادي، وبدأ في وضع المشروبات واحدًا تلو الآخر على المنضدة، بينما ناصر وفتحي قد انهمكا في حديث جانبي وقد أخفضا صوتيهما تمامًا، يكادا يتهامسان، فيقطع صوت الأكواب على المنضدة خلوتهما، بينما محمود يجلس إلى يمين المنضدة وقد وضع يده على جبهته غارقًا في حالة من الصمت والهدوء.

- الزبادي يا رجالة.. **والله** عملته بإيديا دول.

- حط المشاريب من سكات.. مش كفاية عكّرت مزاجنا؟

- حقك عليَ يا توحة.. وربنا لعوضهالك.. بس دوق وقولي تمام ولا إيه.

- خلّص يا عماد.. مش ناقصاك.. حط المشاريب وشوف زباينك.

ينادي أحدهم على عماد:

- وحياتك يا عمدة شاي صعيدي وكتّر السكر.

ينصرف عماد في خجل محاولاً إخفاء حرجه، متجهًا إلى منضدة أخرى.

- مقبولة منك يا عم ناصر.. ما إنت ابن الغالي.. أيوة جاي.

عماد يتحرك في اتجاه الزبون، بينما يعود ناصر وفتحي إلى حديثهما الهامس، وما زال محمود غارقًا في حالته الساكنة، وعلى الجانب الآخر من المقهى ما زال المعلم عطية ينصت في شغف إلى أم كلثوم، وقد زادت حالة الانسجام بشدة، حتى أنه صار يدندن مع الست بصوته، وعبده إلى جواره يشاركه الحالة في انصهار تام، حتى تظنهما سكارى، وما زال الحاج ناجي هناك على المنضدة يطالع الجريدة وقد اندمج في قراءة مقال عن أسعار المواد الغذائية في بداية العام القادم، وتبدو عليه أثناء القراءة علامات التعجب والانزعاج، فما زال الغلاء يعتري أسعار السكر والشاي والزيت، وما زال الحاج ناجي يتابع القراءة في حالة من اليأس، بينما ممدوح يدخن بشراهة محاولاً إقناع رجب أنه مدخن قديم، ورجب يتابعه بابتسامة بائسة.

- خلاص يا أستاذ.. صدرك اتحرق.. عرفنا إنك قديم.

يطفئ ممدوح سيجارته في انفعال، وقد اعترفت ملامحه بكرهه الشديد للدخان.

- ولا قديم ولا حاجة يا عم رجب.. أهو أي حاجة ننفخ

فيها همنا.

يلتفت رجب إلى ممدوح مديرًا كرسيه ليصبح مواجهًا تمامًا لكرسي ممدوح، متسائلاً في تعجُب:

- هموم؟! إنت عندك هموم يا أستاذ ممدوح؟!

يبتسم ممدوح ابتسامة مُحيّرة، محركًا كلتا يديه، ثم تستقران إلى فخذيه، مشبكًا أصابعهما.

- أومال فاكرني يعني مبسوط أوي؟ ياكش فاكر شوية القمصان والبنطلونات والريحة دي يعني أنا مبسوط! يا ابني متاخدش بالمظاهر، ده أنا همومي تملا زكايب يا عم رجب.

يمد رجب يديه إلى علبة السجائر ويسحب سيجارة، يشعلها من بقايا سيجارته الأولى، ثم يطفئ سيجارته الأولى تحت قدميه.

- ياه يا أستاذنا! ده إنت شايل ومعبّي. فضفض.. فضفض.. خير يا أستاذنا؟!

«آه.. أدوب في الحب.. وصبح وليل.. وليل على بابه».

يحاول ممدوح التهرب من سؤال رجب، ويمد يديه إلى بنطاله محاولاً إزالة آثار المياه التي أغرقته، وقد تلعثم وازداد توتره، ثم يتدارك الأمر محاولاً إخفاء ارتباكه.

- خدتني في دوكة ونسيتني.. إنت مالك شايل طاجن ستك ومضلمها؟ احكيلي.. ولا تكونش البت نوسة لسه تقلانة عليك؟

تنفرج أسارير رجب.. وتبتسم ملامحه بصدق للمرة الأولى فيمد يديه إلى أسفل كرسيه ويقف على أطراف قدميه للحظات، ساحبًا كرسيه في اتجاه ممدوح، ليصبحا أكثر خصوصية، ثم يجلس على كرسيه من جديد، وقد شعر بفرح شديد لمجرد ذكر اسم نوسة. إنها تلك الفاتنة التي هجمت بجيوشها وعتادها على تلك الحارة الصغيرة، وقد احتلت قلوب شعبها واستعمرته بلا رجعة.. إنها صاحبة القوام الممشوق والكعب الغزالي والوجه المضيء ببياضها الفتّان وحمرة خديها المتلألئين، وخطواتها التي اعتادت أن تترك دائمًا ضحاياها على جانبي سجادتها الحمراء. فهي أشبه باحتفال كبير يمر أمامك، ومهرجان عالمي يضم جميلات العالم في تفاصيلها، ومسابقة للإثارة يتنافس فيها خصرها ونهداها فقط. يتلفت رجب يمينًا ويسارًا قبل أن ترتكز عيناه في عينيّ ممدوح، وقد وجد فيهما بوابة الإفراج عن مشاعر لا يقوى على إخفائها أكثر.. يستجمع قواه في ضعف شديد ويُصدِر أوامره لإطلاق مشاعره خارج ذلك الصدر المُثقَل بالشوق والحرمان والدخان.

- مش عارف أعيش يا أستاذنا.. حياتي اتربطت في ضحكتها.. مش موجود يا أستاذنا.. أنا مبقتش موجود.

يعتدل ممدوح في جلسته وقد أحكمت يمناه قبضتها على ذقنه، وفي عينيه نظرة عالِم جليل.

- يخرب بيتك ياد يا رجب! ده إنت واقع لشوشتك!

يسابق رجب دخان سيجارته مستخدمًا كلتا يديه وكل تفاصيل ملامحه، مكررًا معظم كلمات جملته، وكأنه يشرح نظرية النسبية لصديقه.. بينما ينهي جملته بكلمات لا تستوي وعقلية مدرس اللغة العربية ممدوح.

- عارف؟عارف لما.. لما تحس إنك.. إنك اتبدَلْت؟! عاملالي عمل.. ساحرالي؟!

«العيب فيكم.. يا ف حبايبكم.. أما الحب.. أما الحب يا روحي عليه.. يا روحي عليه».

تنال مفاجأة رجب لممدوح من ضحكته الساخرة، والذي قرر أن يستمر في الحديث مهما كلفه ذلك من وقت وجهد، حتى يستوعب تمامًا ما هو مقصد رجب من ذلك. ويمر عماد أمامهما في تلك اللحظة، ويا لها من صدفة عظيمة! كما شعر بها ممدوح، فقد قرر أن يشرب قدحًا ثقيلاً من الشاي، فهو يرى أن الأمر يحتاج إلى المزيد من المزاج لاستجواب رجب استجوابًا لا يغادر حرفًا من حقيقة ما يشعر به.

- هههه.. لا بقى.. دي عايزالها كوباية شاي حبر.. اتنين شاي تقيل يا عمدة.. بس شوف حد يشيل معاك.

يلتفت عماد أثناء مروره إلى الأستاذ ممدوح وهو يردد كلمات الست معها، مشيرًا برأسه بإشارة الموافقة على طلب الأستاذ ممدوح دون أن يستوقفه ذلك، وشفتاه تردد كلمات الأغنية وتبتسم لممدوح في آن واحد، ويقاطع نفسه في ثقة محدثًا نبوي صانع المشروبات، الماكث خلف السطح الرخامي الأبيض في نهاية المقهى.

- هحمّلهملك على نص نقل يا أستاذنا.. وعندك اتنين شاي على نص نقل يا ابني.

يبتسم نبوي في بَلَه وقد نالت منه آهات الست ما نالت، مشيرًا إلى عماد بيده، رافعًا إبهامه ليرسم إشارة تأكيد ما قال.

في الركن الرئيسي للمقهى ما زال المعلم عطية غارقًا في دخان نارجيلته في حرم الست، مغمضًا عينيه، ويمر أمامه شريط من الذكريات التي تأسر قلبه دائمًا وأبدًا، فما زالت فايزة صاحبة الوجه الملائكي تقطن في ثنايا بقايا مشاعره المدفونة في أبعد منطقة في قلبه، تلك الأنثى العاقر التي أفنى معها أعوام شبابه، متباهيًا بها متفاخرًا بجمالها وعشقها له، فلقد جعلت منه «سي السيد» كما لو كانت هي أمينة بذاتها، بينما جعل منها سيدة القصر، إلا أن زواجه الثاني أملاً في الولد قد ترك في نفسها أثرًا عظيمًا تمكّن منها، فيما لا يزيد عن أشهر قليلة، مُخلِّفة وراءها ذنبًا عظيمًا لم تستطع زينب محوه من ذاكرة المعلم عطية، برغم ثلاثة أولاد أنجبتهم له، كما أنها لم تستطع أيضًا الوصول إلى قلبه المتيم بفايزة.. فما زالت زينب بعد عشرة أعوام من العشرة والود بينهما تبحث عن قلب المعلم عطية ولا جدوى، فهو هناك تحت التراب، في أحضان حبيبته الأزلية، ولقد عشقها عشقًا مضاعفًا بعد رحيلها.. وكلما تحدث إلى نفسه وجدها غير مدركة إن كان حبًا يزداد كلما مرت ساعات الفراق أم أنه ذنب لم يعد يحتمله وقد صدر

الحكم فيه نهائيًا بلا نقض أو مرافعة.. حكم الحب إلى الأبد.. ارتبط المعلم عطية بصوت الست ارتباطًا وثيقًا بعدما رحلت فايزة.. فلقد كانت عاشقة للست، كما أن جميع رسائلها العاشقة إلى المعلم عطية كانت لا تخرج عن أقلام كُتّاب أغاني الست، فهو لا ينسى أبدًا تلك الرسالة المحفورة في قلبه عندما وافقت عائلتها على الزواج منه، فكتبت له بقلم رامي على إيصال الكهرباء «مين زيّي في الدنيا اتهنى.. وقلبه نال اللي اتمنى».. تلك الكلمات التي شَدَت بها ثومة في أغنية «الزهر في الروض ابتسَم» في فيلم دنانير عام ١٩٤٠.. إنها فايزة.. عشقة الأبدي والذي جعله عاشقًا لثومة.

«يا اللي مليت بالحب حياتي.. أهدي حياتي إليك».

يربت فتحي على كتف محمود الصامت تلك الليلة محاولاً إخراجه من حالة السكون، بينما يشير إليه ناصر أن يتركه وشأنه، ويرفع محمود رأسه لفتحي مبتسمًا، محاولاً إقناعهما أنه بخير وأن ما حدث في تلك الليلة لم يعد يؤرقه، ولكن محاولاته باءت بالفشل الذريع، فتلك الدموع في عينيه بمثابة ثورة إحباط وحزن شديدين، لقد خسر محمود حبيبته في تلك الليلة التعيسة بالنسبة إليه، لقد علمت نجوى الليلة عن علاقته براقصة الحانة اللولبية نعمة، وهي لم تكن المرة الأولى التي تعلم فيها نجوى عن علاقاته الآثمة، إلا أن رصيد عفوها وصفحها عنه قد نفد عن آخره، فكم من مرات عدة أقنعها بأنه نادم، وأن ما يشربه في تلك الحانة

يجعله بلا وعي عما يصدر منه من تصرفات، لا يجب أن تلومه عليها، بينما كانت دائمًا تلتمس له الأعذار وتخلق له من المبررات ما يرضي حبها الكبير له، فهي تحبه حبًا كبيرًا منذ الصغر، ولم تكن لتتخيل يومًا أنه لغيرها، وهو كذلك لا يستطيع الاستمرار دون نظرتها التي تلقيها عليه في كل صباح، يتنفسها ويأكلها ويشربها، ويجترّ ما تبقى منها طوال يومه، حتى ينال مثيلتها في الصباح التالي. لقد كانت تخدع بصيرتها من أجل تلك القصة التي حاربت من أجلها كثيرًا وما زالت، فنجوى لديها من الجبهات الكثير من أجل محمود.. فإن فازت بقلبه دون خيانة -وهو حلم بعيد المنال- فسوف تعاني في معركة المستقبل معه، فهو بلا عمل يكفي لإقامة أسرة، وما زال يماطل في الحصول على شهادة تقيه ظلمة الورشة التي يعمل فيها كصبي لمعلمه الأسطى حنفي الإسكافي، وإن انتصرت في تلك المعركة فستواجه ملحمة جديدة في قصة حبها البائسة لإقناعه بالابتعاد عن صديقيَ السوء اللذين داهما أخلاق محمود وأجهزا عليها وأصبح مدمنًا للخمر والنساء الساقطات، ومهما كانت حنكتها في ذلك فيبقى لها المعركة الفاصلة في إقناع أبيها بذلك الصعلوك الفاشل زوجًا لها.

في تلك الليلة تنسحب نجوى من ميدان الحب.. مستسلمة لأعدائها جميعًا بعدما خذلها محمود بعلاقة آثمة بطلتها نعمة راقصة الحانة، فأمرت جيوش قلبها وحبها وعقلها بالانسحاب، فلم يعد هناك وطن تحارب

من أجله، عندما قالت له في قسوة لم يعهدها محمود:

- خسارة فيك كل لحظه حبيتك فيها.. بس خلاص.. على رأي الست.. للصبر حدود.

ما بين حديث رجب وممدوح تنساب نغمات القانون لتندمج معها مشاعر رجب، الذي عجز تمامًا في تلك اللحظة عن التعبير عنها بذلك النوع من الكلمات المستهلكة في سوق العشق والهوى.. ما جعله يصل إلى طريق مسدود في نفسه، فكيف له أن يعبر عن شيء هو غير قادر على وصفه.. فأخذ علبة سجائره من جديد وأشعل سيجارة جديدة.. بينما ممدوح ينظر إليه في عجب، فلقد نسي رجب سيجارته السابقة في مطفأة السجائر وأشعل أخرى. فشعر ممدوح على أي حال أصبح رجب عندما ذكرت نوسة. وابتسم رجب عندما اكتشف ما فعل، وارتكزت عيناه على وجه ممدوح، فتوقف عن الكلام تمامًا وأخذ يداعب حلقة مفاتيحه على المنضدة، بينما يصل عماد في تلك اللحظات ويضع قدحي الشاي على المنضدة برفق، وقد امتلكه شعور بأنه ربما قد جاء في وقت غير مناسب، أو أنه قد كسر حالة من الخصوصية لكليهما، فإذا به ينهي مهمته منسحبًا في هدوء. ويمسك ممدوح بقدح الشاي وقد أيقن أن رجب يمر بحالة حب بائسة لا يجدي فيها حديث أو فضفضة، فيمرر قدح الشاي الثاني إلى رجب، الذي يمد يده مستقبلاً القدح برفق دون أن ينطق كلمة واحدة.

يمد الحاج ناجي كلتا يديه إلى نظارته، فيحكمها على وجهه المبتسم، وقد تسلقت عيناه ذلك البيت المواجه للمقهى وتعلقت عند تلك الشرفة التي تنفتح برقة، كاشفة عن مريم الإسكندرانية، تلك الأرملة التي توفي زوجها منذ أشهر قليلة والتي رأى فيها ناجي فريسته الجديدة لهوايته المفضلة في الزواج من المطلقات والأرامل، فهو يتابعها منذ وفاة زوجها، وقد كان الأكثر اهتمامًا ومشاركة في عزاء ودفن زوجها، بل وقد تكفل ببعض مصاريف الوفاة نظرًا لظروف مريم السيئة ماديًا، والتي تمتن كثيرًا لموقفه معها. إلا أنه يرى أنه قد قدم السبت وهو في انتظار الأحد القادم من مريم. فالحاج ناجي ذلك العرضحالجي الذي اعتاد على الرشوة وإنهاء معاملات العباد مقابل مبالغ مالية، جعلته ذلك الرجل الميسور الحال صاحب الزيجات المتعددة، حتى أنه لم يعد قادرًا على تذكر أسماء بناته وأبنائه من زوجاته الست السابقة، واللائي تفاوتت أحوالهن بين الموت والطلاق والرحيل عن ذلك المزواج صاحب العين الزائغة، ولم يعد لديه من يؤنس وحدته سوى جريدته وخطته الجديدة في إضافة مريم إلى قائمة الزوجات.
تلقي مريم بنظرها إلى تلك البقالة جوار المقهى، فتجدها قد أغلقت أبوابها مبكرًا في تلك الليلة، فتشعر بخيبة أمل، فهي وحيدة ولا يوجد من يحضر لها طلباتها سوى تلك البقالة، فتعود بنظرها مرورًا بالمقهى، وتلتقي عيناها بعيني الحاج ناجي، الذي قد أرسل في نظرته

إليها سهامًا ورماحًا وخيولاً وجيوشًا من الرغبة والحب والاستعطاف، فتحمرّ خجلاً، وفي ارتباك تعود فتغلق شرفتها. بينما ينشرح صدر الحاج ناجي صاحب الخبرة الطويلة في النساء، فقد أيقن أن فريسته قد أوشكت على الاستسلام.. ويحك ذقنه في انتصار محدثًا الأستاذ ممدوح:

- مش قلتلك يا أستاذنا! الأكثر حظًا الليلة. اوعدنا يا رب.

«شيء خلى الدنيا.. زهور.. على طول.. وشموع.. على طول».

ينتبه الأستاذ ممدوح للحاج ناجي، الذي رفع جريدته من جديد في حالة من النشوى، بعد أن اخترق بكلماته ظلام الحالة ما بين رجب وممدوح، فيبتسم في بؤس رافعًا رأسه إلى شرفة مريم المغلقة، ثم يرتد بنظره إلى الحاج ناجي.

- يا عيني عليك يا حاج ناجي يا رايق إنت! اوعدنا يا رب.

ينظر ممدوح من جديد إلى رجب وقد انتصفت الليلة، مثلما انتصف قدح الشاي في يد رجب، ويحدثه في شيء من اليأس.

- قوم بينا يا رجب؛ الساعة بقت اتناشر وزمان أم العيال قالباها مناحة.

يعتدل رجب في جلسته ساحبًا آخر أنفاس سيجارته، وقد رفع عينيه إلى تلك الساعة المعلقة في أقصى

المقهى إلى جوار المذياع، وقد ارتسمت على وجهة نظرات تعجب من مرور الوقت بتلك السرعة دون أن يشعر، ثم يعود بنظره إلى ممدوح.

- ياه! الوقت جري يا أستاذنا.. بس لسه الست مخلصتش.. مجاتش على آخر وصلة.

«مبقولش في حبك غير **الله.. الله الله**».

يومئ ممدوح بالموافقة، بينما يتحرك عماد في كل مكان في المقهى رافعًا أكواب الشاي وفناجين القهوة الفارغة وهو يحاسب الشباب الثلاثة على ما تناولوه من مشروبات، ثم يغادرون المقهى، وما زال فتحى وناصر يتبادلان النكات والضحكات في محاولة للبحث عن ابتسامة محمود، الذي بدا بائسًا تمامًا، وقد تخلّف قليلاً عنهما في مشيته، وخطواته تتوسل إليه في بطء شديد، وعلى الجانب الآخر من المقهى نبوي الذي بدأ في تنظيف أرضية المقهى من بقايا السجائر ونشارة الخشب، وفي يده مكنسة قديمة لا تقوى على مهمتها.

وتمر الدقائق واللحظات على المقهى، وقد غادر عبده الفكهاني مستسلمًا لرغبته الشديدة في النوم، تاركًا المعلم عطية ونارجيلته، بينما وقف الحاج ناجي خارج المقهى ينفض غبار المقهى والدخان عن ملابسه، وقد أطال في وقفته، علّه ينعم بنظرة جديدة من شرفته المفضلة، ويغادر ممدوح المقهى بعد أن أقنع رجب بأن كل دقيقة تمر تعني له ساعة جديدة في شجار مع زوجته، التي نغّصت عليه حياته بفضل تعليمات حماته

المستمرة.

الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل.. وقد فرغ المقهى عن آخره ولم يتبقَ سوى نبوي يرفع كراسي المقهى وينظف هنا وهناك، وقد بدا عليه الإعياء الشديد، ولكنه اعتاد أن ينهي مهمة تنظيف المقهى كاملاً قبل خلوده إلى النوم في ذلك الركن من المقهى، وما زال رجب يجلس على كرسيه بعد أن غيّر وضعيته، فأصبح يجلس على الكرسي في وضع معاكس، وقد ألقى برأسه على خلفية الكرسي، بينما قدماه تحيط بأقدام الكرسي، وما زال في يمناه بقايا سيجارة قد أوشكت على إحراق أصابعه.

يتجه نبوي إلى رجب:

- يا أسطى رجب.. خلاص شطبنا.

يرفع رجب رأسه إلى نبوي وقد امتلأت عيناه بنعاس جارف. ينظر إلى نبوي ثم إلى أركان المقهى الخالي تمامًا، ثم إلى ذلك المذياع الذي بقي وحيدًا بعد أن غادر الجميع. يخرج رجب من المقهى بخطوات مترددة، وقد أحكم قبضته على علبة سجائره وحلقة مفاتيحه، حتى غاب عن عينيّ نبوي الذي وقف يراقبه، ثم استدار إلى المقهى الخالي تمامًا، بينما صوت المذياع ما زال يملأ المقهى.

- من كلمات مرسي جميل عزيز وألحان بليغ حمدي، استمعتم إلى رائعة كوكب الشرق أم كلثوم.. سيرة الحب.

آخر العقلاء

أحمد أبو شرخ

يجلس في مقهى صغير لكنه اكتظ بالبشر.. نساء ورجال من مختلف الأعمار، تختلف هيئاتهم وإن تشاركوا في إبداع سيمفونية الضجيج المتناسق التي تصدر حين يتكلم الجميع في مكان ضيق نسبيًا في وقت واحد. فما تعرف حينها فعلاً من اسم.. كلمة من صرخة أو أنين.. لا تعرف إن كانت تلك جُملاً أم أصوات الملاعق والأشواك، وأصوات القواطع من الأسنان تقطع والطواحين تمضغ.. وبين هذا وذاك يجلس هو.. محني الظهر بطريقة أخفت رقبته تمامًا، فترى وكأن الرأس ملتصق بالجسد مباشرة بين الكتفين. رجل بلا قفا. تتساءل عن ملامحه.

هي عادية جدًا، فالوصف هنا حشو وما له من داعٍ، أما إن كنت مُصرًا فلتعرف أنه ضيق العينين حتى البخل! يديرهما مراقبًا الجمع كذئب عجوز متقاعد من رواية ليلى والذئب. له شفتان كَظّتان يمطهما كل لحظة وأخرى باشمئزاز من شيء ما. يمسك قلمًا ذا ريشة قديم الصنع، يخضّه مرتين ليسيل الحبر من طرفه.. يحرك أصابعه ببطء كل لحظة وأخرى ويكتب شيئًا ما على منديل وَرَقي، يملؤه بالكامل قبل أن يمزّقه ويقذف به إلى سلة مهملات عتيقة، في محاولة فاشلة لتقليد مايكل جوردان، حيث يسقطن جميعًا خارج السلة.

يراقب المضيفة بتركيز، يراقبها تتنقل من طاولة إلى

أخرى بلباسها الأبيض الضيق، يلقي نظرات أولى متعددة، على أساس أن عينينه الضيقتين لا تتسعان لنظرة أولى كاملة، فيجب أن يجزئها لمراحل. تقترب المضيفة منه، يستطيع سماع كعب حذائها وهي تخطو نحوه يعزف لحنًا غريبًا.. حتى إلى هذا تخللنا الاستعمار.

ها هي تنحني حتى كاد رأسها يلامس رأسه؛ وقحة. أتريد تقبيلي أم ماذا؟! يفكر للحظة في الأمر قبل أن يسمعها تهمس في أذنه بصوت الفراشات إن تكلمن:

- سيد مصطفى.. أتحب أن أزيد فنجانك بعضًا من القهوة؟

يطالعها بصمت. تزيد عيناه ضيقًا حتى كادتا تختفيا.

- سيد مصطفى؟ قهوة؟

يطالعها بصمت أثقل؛ تهز رأسها بتأفف وتهم بمغادرته لغيره، لكن فجأة تمتد يده بسرعة لا تناسب منظره الخامل، فجأة تقبض أصابعه العجوز على معصمها بشدة أوجعتها، فجأة تبرز قفاه من بين كتفيه، وتتسع عيناه على أشدّهما، فجأة تضخ الحياة في جسد الرجل، وفجأة تصرخ المضيفة الحسناء من المفاجآت التي مضت، وتقابل صرخاتها نظرات العجوز التي بدت شاردة.

*****

أخذت تصرخ وهي تحاول بفشل ستر ما تعرى من جسدها بيديها، نظراتها تنتقل شعوريًا بسرعة رهيبة بين

الذعر والحذر والخوف والعار والحزن والبؤس، بين الرجل ضخم الجثة عريض الصدر الذي يرتدي قميصًا أبيض اتسخت أطرافه بدماء جافة، وزوجها المُقيّد في طرف الحجرة الآخر يشاركها الصراخ والتوسل.

تركها الضخم لتصرخ قليلاً وهو يداعب سوطًا قصيرًا بين يديه، ويدندن بكلمات أغنية الراحلة أم كلثوم: تفيد بإيه يا ندم.. يا ندم.. وتعمل إيه.. إيه يا عذاب؟! طالت.. ليالي.. ليالي ليالي الألم.. واتفرقوا الأحباب. ثم انقضّ عليها وشدها من ذراعها بعنف.

*****

- اتركني! عمر.. انجدني يا عمر.

يبرز من طرف المقهى رجل ضخم الجثة يرتدي لباسًا مشابهًا للباس المضيفة، مع اختلاف نسبة ضيقه على الصدر والأرداف. تشعر بثانية من الرعب تمرق في عيني العجوز، سرعان ما تلاشت. لكن كانت كافية لترتخي أصابعه، المصابة بهشاشة العظام أصلاً، عن معصم المضيفة، فتفلت الأخيرة وتبتعد عن العجوز بحدة.

- لا.. أصبح الأمر لا يطاق، هذه المرة الثالثة التي يفعلها في أسبوع، يجب عليكم فعل شيء تجاهه.

- اهدئي آنسة سعاد.. اخدمي الآخرين ودعيني أهتم بالسيد مصطفى.

تتأفف.. وتبتعد عن السيد مصطفى، بعد أن ألقت عليه نظرة نارية، وأطلقت سبابًا بذيئًا لا يليق بمنظرها

الرقيق.

- سيد مصطفى.. لمَ تُصرّ على إمساك يدها بشدة هكذا؟ أتحب إرعاب الفتاة والسلام؟!

يطالعه العجوز بصمت.. فيكرر الرجل سؤاله بحذافيره وكأنه يقرؤه من ورقة. النظرة الصامتة.. السؤال.. النظرة الصامتة.. السؤال.

- أيعجبك جمالها؟

وأخيرًا يتكلم، وبعكس ما تتوقع، فلم يكن صوته مشابهًا لأنين باب قديم في منتصف الليل، أو إزعاج قطعة طباشير تنزلق بحدة على السبورة.. بل كان صوتًا رخيمًا مهيبًا، تتخلله بضع الأنّات، دالة على كِبر سن الرجل.

- الجمال في الأخلاق.. ليس في بنطال الوسيلة الوحيدة للخروج منه هو قصه، أو تأجير اثنين من ذوي العضلات لسحبه من قاعه.

ثم يقفز من مقعده بنشاط ولد في العاشرة.. ويهتف بصوت مرتفع:

- كلكم مجانين!

- اهدأ يا سيد مصطفى.

- لن أهدأ.

- لا داعِ للصراخ.

- بل سأصرخ.

- سيد مصطفى!

*****

- الأمر أكبر منك يا رجل.. يجب أن تتوقف عن مهاتراتك هذه.

بغضب الدنيا أجاب بحزم: أقسم لك، لن يبقى الرأس مكانه، سأزيله عن العنق كأي خروف يحترم نفسه في عيد أضحى.

- هذا الكلام سيرميك في قاع الأرض ستين خريفًا.

- **والله** لأمرغ أنفه في التراب.. أتظن سأتوقف عند فضحه في الصحف فقط؟!

- لقد عرض عليك مليون جنيه كاملة، صدقني لن يعرض عليك أكثر.

- وهل يُرجِع ذلك ابنتي؟! أيظن الحياة تُشترى وتُباع؟!

- وكيف نحلّ الموضوع برأيك؟

- أن نقيم العدل.

- وكيف يكون ذلك؟

- لقد بعت الشقة ووكلت أشهر محامٍ في البلد لمقاضاته.. صدقني لن يهدأ لي بال قبل أن يلقى جزاءه.

- المحامي منصور السيد؟

بارتباك: نعم.. هذا صحيح.

ناوله ورقة موقعة قائلاً بظفر: تتكلم عن المحامي الذي وقّع على تعهد لموكلي بعدم الترافع في قضيتك؟!

- مستحيل!

- قلت لك الموضوع أكبر منك بكثير يا حاج.

- وليكن.. أجد غيره و...

قاطعه بغضب هذه المرة: ألم تفهم بعد؟ الأمر منتهٍ!

«فات الميعاد» يا عزيزي.

بتساؤل: فات الميعاد؟!

بدهشة مصطنعة: ألا تعرف أغنية أم كلثوم الرائعة؟

بعدم استيعاب: أعرفها.. لكن...

تقول بكل لطف ورِقة: تفيد بإيه يا ندم.. وتعمل إيه يا عذاب.. طالت ليالي الألم.. واتفرقوا الأحباب.

بغضب الدنيا هتف: أنت حقير! أوحقًا تغني على فراقي ابنتي؟! ابنتي المقتولة!

ابتسم محدّثه مجيبًا ببرود: لا.. هذا الأمر انتهى.. أتكلم عن أحباب حاليين.. أخشى عليهم عذابًا وألمًا.. نعم أغنية الست في الماضي، لكن للشاعر حق التصرف.

- أنت ضابط شرطة!

- ولكني وددت دومًا أن أكون شاعرًا.

نظرة بين الدهشة والذعر.

*****

يصرخ العجوز السيد مصطفى، بصاحب اللباس الأبيض بثورة:

- اصمت.. كلكم مجانين.. وأنت أولهم.

- لكن لا عتاب على المجانين.. العتاب على العاقل الوحيد الذي قَبِل مشاركة المجانين طعامهم.. وقهوتهم.

ثم يبصق بقرف ويضيف: قهوة مُرّة طعمها كالحديد الصدئ.. عشرون عامًا آتي لهذا المقهى وما شيء تغيّر.. ذات الوجوه النتنة.. ذات الضحكات البلهاء.. ذات الأحاديث السخيفة.

- أونتهيت سيد مصطفى؟! أتمانع الجلوس الآن؟!

- لا تقل اجلس! أنا الذي أجلست الرؤساء والزعماء، لا تقل لي اجلس!

- أي زعماء ورؤساء يا أحمق؟! اجلس قبل أن آتي فأحطم عنقك.

يهتف بها أحدهم.

ترتفع ضحكات البعض، مما زاد من حدة لهجة العجوز، ورفع صوته لأعلى درجة تتحملها أحباله الصوتية المنهكة:

- يا أغبياء.. أنا حاربت من أجل هذه الأمة.. كافحت من أجل لقمة العيش، حتى صار تعبي أعتى من جوعي.. فإن حصلت على لقمة العيش ما تبقت فيّ طاقة كي أمضغها.. أنا من لم يخَف للحظة أن يقف أمام الكبير ويهتف في وجهه «لا» بأعلى صوته.. لم أعِر اهتمامًا لجاهٍ ولا سلطان.. لمال أو قوة.. أنا الذي قلت للظالم «يا ظالم توقف.. نعم لا أخافك.. إن كنت كبيرًا.. **فالله** أكبر».. أنا من صرخ «ماذا ستفعل؟ ستعذبني؟ ستقطع قدمي من خلاف وتصلبني؟ لا يهم! حياتي بائسة عمومًا.. ستمنعني عن النار إن انتحرت.. وربما تساعدني في دخول الجنة شهيدًا إن فعلت» لكن الوغد قتل ابنتي الطفلة، اغتصب زوجتي المسكينة، أفعل شاحنة في دراجة ولدي الذي لم يتعدَ العاشرة. وتركني وحيدًا. كلكم شاهدتم القصة وبقيتم على صمتكم، بقيتم تلتهمون شطائركم وتحتسون قهوتكم السيئة،

شاهدتموني أتمزق، وعوضا عن مساعدتي ابتعتم بعضًا من المكسرات والفيشار تسليكم وأنتم تتابعونني على نشرات الأخبار. لكني لا ألومكم، فلا عتاب على مجانين. خطئي أني الوحيد العاقل في مجتمع من المجانين. لو الرب رفع الحساب عن المجنون، من أنا كي أنزله؟! لكن عائلتي يا جماعة! عا...

ويبتر عبارته وقد انتبه للأغنية التي خرجت من مكان ما «وتفيد بإيه يا ندم يا ندم.. وتعمل إيه يا عذاب».

وتنسلَ الدموع من عينيه لثوانٍ، وتظنه سينهار باكيًا، وينتصب فجأة ويصرخ بأعلى صوته:

- كلكم مجانين.. مجانين!

وغادر المكان بسرعة لا تناسب سنه.. وعدا عمر -الضخم زميل المضيفة- خلفه بذعر، لكن العجوز كان يعدو كأرنب بين الكراسي، غادر المكان لحديقة واسعة، همَ بالعدو فيها، لكنه توقف ليلقي نظرة على لافتة عُلّقت بإهمال على مدخل المبنى، كانت مائلة قليلاً، فمال برقبته ليقرأ الاسم ببطء، وبينما يقرأ وصل عمر للمدخل لاهثًا. تنفس الصعداء حين رأى العجوز يتمعن اللافتة بتركيز «مستشفى البستان للأمراض العقلية».

- كلكم مجانين.. مجانين.

ينتفض فجأة من تركيزه صارخًا بها وقد همَ بالعدو مرة أخرى، هذه المرة في دوائر غير متناسقة بين الأشجار والأعمدة. يصرخ مكررًا «مجانين.. مجانين».. يلاحقه حسني لاهثًا.

- مجانين.. مجانين.

تهيأ ليلتها على أكملِ وجهٍ، أعد كل شيءٍ، لم يغفل تفصيلة واحدة تفسد ليلته، من أن تنقضي كما خطط لها. دخل ليأخذ حمامًا، كان الحمام أيضًا في استقباله، روائح عطرية ممتزجة تضوع منه، شموع تتناثر على حوض الاستحمام، مياه دافئة تتدفق من الصنبور، تدفع الهموم عن الجسد، تساعد على الاسترخاء.. تدفقت المياه بغزارة لتنساب على جسده بالكامل، من أعلى إلى أسفل، أخذ يمسح بها على جسده، وكأنه يتطهر بها من ذنوبه ويتحرر منها. اختلطت حينها المياه الدافئة بدموعه الحارقة، فصارت كالجمر يلهب جسده. كان الأمر الغريب وقتها، أنه لم يتألم ولم ينجُ بنفسه من تحت المياه، كل ما فعله أنه أسند رأسه على حائط حوض الاستحمام البارد، استسلم للأمر الساخن.

عاد إلى غرفته في زيٍ أبيض ناصعٍ، وقف أمام المرآة، يتفحص نفسه بعنايةٍ ويطمئن على هيئته كيف تنعكس أمامه، أمسك بزجاجة عطر نحاسية ووضع منها على عنقه، كان عطرًا جذابًا لكنه حزين، تسعد برائحته للوهلة الأولى، لكن سرعان ما ينقبض قلبك بعدها. أخرج من درج المكتب علبةً زجاجيةً صغيرةً ووضعها عليه، بدا وكأنه تذكّر شيئًا هامًا، فهرع إلى الغرفة المقابلة له، فتح الباب بحرصٍ بالغٍ، دلف إلى الداخل بخطى هادئة، حتى وصل أمام الفراش، اقترب منه وطبع قبلتين، الأولى على جبينها الذي يرتسم بتجاعيد غائرة، الثانية على يدها اليمنى، التي فعل بها الزمن فعلته، بل أنه لم يكف

عن ترك آثاره بها.. عاد ثانيةً إلى غرفته وأغلق الباب. جلس يكتب شيئًا، وعلى ما يبدو أنه كان يكتب رسالة، كان عنوانها «لمن يهمه الأمر». أخرج مغلفًا أسود ووضعها فيه، ثم تركها بجانب صورة زيتية صغيرة، ارتسمت بلونين فقط، الأبيض والأسود، ويتوسطهما صورة رجل يتألم، كأنه في النزع الأخير، المثير للدهشة أنه كان يبتسم.

استوى واقفًا وفتح النافذة، ومد بصره عاليًا نحو السماء، فرأى القمر ساطعًا تتهادى حوله النجوم في دلال بالغ. أخفض رأسه فوجد حارس العقار عائدًا وفي يده طعام العشاء المتواضع لأسرته. سمع صوتًا يأتي من بعيد، كانت ضحكات شاب وفتاة، تتعلق هي بذراعه، تختبئ برأسها في صدره، يتسامران ويضحكان كأنهما وحدهما يسيران على قارعة الطريق، ظل يتعقبهما بعينيه حتى اختفيا بعيدًا تحت الأشجار الكثيفة.. هز شجرة التوت التي تقترب أغصانها من النافذة، فسقطت حبات التوت الأحمر داخل الغرفة، فالتقطها ومسح غبارها، وضعها في فمه وأغمض عينيه وأخذ يتذوقها.. كانت المرة الأولى التي يتناول فيها التوت، فلم يكن أبدًا فاكهته المفضلة، على الرغم من أن شجرة التوت كانت جارته منذ زمن بعيد.

توجه نحو المكتبة وأمسك بدفترٍ جلدي أسود اللون، نفض الغبار عنه، فسعل مرتين عاليًا. جلس على الأريكة وأخذ يتصفّح صفحاته السميكة، كانت رائحة الزمن

البعيد تنبعث منها، مع كل ورقة يرتسم مشهدٌ من حياته، منها الحلو ومنها المر، ولكن المرارة قد استحوذت على الجانب الأكبر منه. توقفت يده عند صفحة بعنوان «قابلتها في إسبانيا»،» كنت أجلس في كافيتريا المحطة بصحبة قهوتي، كان الوقت لا يزال مبكرًا على انطلاق القطار، شعرت بمللٍ شديدٍ، حتى كدت أن أغفو هربًا منه.. لكني رأيتها وهي تركض مسرعةً نحو الكافيتريا، تلف معطفها حول جسدها من شدة البرد، وتنفخ في يديها قبل أن تتجمد. جلست على طاولة أمامي، ثم خلعت قبعتها، ويا ليتها ما فعلت، فشعرها المتموج المتوهج صفرةً كاد أن يخلع قلبي..طلبت كوبًا من الشوكولاتة الساخنة وأخذت ترشفه كطفلة صغيرة، لم أستطع حينها أن أكف عن مراقبتها، أعلم أن نظراتي الفضولية ضايقاتها كثيرًا، أعلم أن تصرفي كان خارجًا عن حدود اللياقة، لكني لم أستطع إلا أن أراقبها وهي تحتسي الشوكولاتة الساخنة، تدخن السجائر، تقرأ في كتابها ذي الغلاف الفضي. كانت رقيقة كفراشة نزلت ووقفت على قلبي، جميلة كحورية ترتجف من البرد، هادئة كهدوء بحر حزين قبل أن يثور ويغضب، كانت...»، كانت هذه بعض سطور الورقة التي خُطّت بحبر قلم عاشق لفتاة إسبانية.

كان هناك صفحات، لم يقف عندها كثيرًا، قلبها سريعًا كأنه لا يريد أن ينبش في الماضي، يقلب في ذكريات طواها الزمان.. فعلى سبيل المثال عندما توقفت يده

عند ورقة عنوانها «انطفأت شمس أمي»: «رحلت أمي تاركة خلفها طفلاً وحيدًا، ركضت أمي بعيدًا ولم ألحق بها، تركتني وحدي في دنيا موحشة.. مات الأمان والاطمئنان.. ماتت كبيرتي وصغيرتي.. ماتت حبيبتي ورفيقتي.. ماتت أمي...»، بعض سطور هذه الورقة الحزينة التي ذبلت من الدمع.

انتهى من تصفح دفتر الذكريات، وأعاده مكانه ثانية ليرقد في أمان كما كان. وقف في وسط الغرفة وأخذ ينظر بعين زائغة إلى الأشياء من حوله، حتى وقعت عيناه على الهاتف، تقدم والتقط السماعة وأدار القرص، فسمع على الجانب الآخر «ألو» بصوتها الشهي، فكان أشهى من ثمرة التوت الأحمر التي تذوق حلاوتها منذ قليل.. أشبع أذنيه بصوتها وهي تردد «ألو»، دون أن يتفوّه بكلمة حابسًا أنفاسه، ماسكًا بقلبه حتى لا تسمع دقاته المتسارعة. وضعت سماعة الهاتف بعد محاولات باءت بالفشل، لتجعله ينطق وكأنها تعلم أنه هو.. وقبل أن يضع سماعة الهاتف، تحدث إليها قائلاً: أحبك كثيرًا.. فلتغفري لي. لكن ما الجدوى؟ فانقطع الخط.

توجه مرة أخرى نحو النافذة ونظر إلى السماء، كان حينها القمر قد توارى فبدا ناقصًا، عادت النجوم إلى مخدعها بعد أن أتعبها السهر.. أخذ نفسًا عميقًا قائلاً: أحبك كثيرًا، لكني لم أعد أحتمل، فلتغفري لي حين ألقاكِ، فقد حان الوقت.

ذهب نحو المكتب وتناول العلبة الزجاجية، فتحها بيد

مرتعشة، ووضعها على شفتيه وألقى ما فيها داخل فمه. ثم تناولت يده الأخرى كأسًا من الماء ليشربها، حتى تصل الحبوب إلى جوفه سريعًا.. قبل أن يفعلها سمع صوتًا من خلفه يقول: ماذا تفعل؟! فالتفت برأسه نحو الصوت، فرآها تجلس على شجرة التوت وتلوح بيدها نحوه، فسرت بجسده رعشة، سقطت الكأس من يده، متناثرة أجزائها على الأرض، سقط هو أيضًا بجانب الكأس بعد أن تناثرت أعصابه.. كانت هذه هي المرة الثانية التي يغشى عليه فيها بعد وفاة أمه.

استرد وعيه بعد فترة، فوجدها تجلس على الأريكة تتصفح دفتر ذكرياته، فرك عينيه غير مستوعب ما يحدث. نادته باسمه وأشارت إليه ليجلس بجوارها، نهض واقفًا وقد استولت عليه الدهشة، سار نحوها بخطوات متداعية حتى وصل أمامها، مد يده المرتعدة يتحسس وجهها، كأنه يريد أن يتأكد أن الهلاوس لم تصِبه ويخال له أشياء من تحت القبور. ابتسمت ابتسامة رقيقة وأمسكت بيده ووضعت يدها الأخرى فوق يده قائلةً: لا تخف مني، أنا لست شبحًا.. فأنا هي. جلس بجوارها وجسده يهتز هذه المرة نشوةً، ركع أمامها، طبع قبلة على يدها قائلاً: ليتك جئتِ في ليلة غير هذه! أجئتِ لتودعيني؟ ربتت على كتفه قائلةً: أستسافر الليلة؟

- نعم سأسافر.

- إلى أين؟

- إلى الله.
- ولمَ تسافر والله يسكن قلبك؟
- لم أعد أحتمل العيش هنا؛ هنا ليس مكاني.
- وهل هناك سيكون مكانك؟
- لا أعلم، لكن من المؤكد أنه سيكون أفضل من هنا.
- لا، يكون أفضل إلا عندما تستحق ذلك.
- أنا لم أفعل شيئًا طيلة حياتي يجعلني لا أستحق أن أحيا في أمان.
- ولأنك لم تفعل شيئًا طيلة حياتك فأنت لا تستحق شيئًا.
- حاولت كثيرًا، لم يحالفني حظي.
- حاول أكثر، سيأتي مرة في صالحك وستكون هي المرة التي تجعله يندم أنه عصاك وأدار وجهه عنك.
- سأفشل.
- وربما تنجح.
- وإذا فشلت؟
- ستزداد قوة وصلابة.
- ثم غنت بصوتها العذب قائلة: ولو آسيت مهما آسيت.. برضه أنا عندي أمل.

فأجابها بصوت حزين: حاربوني الكل وغلبوني.. ظلموني الناس.. أروح لمين ومين هيرحم أسايا؟ وأقول يا مين ومين هيسمع ندايا؟

فأجابته: حبيبي لما يوعدني تبات الدنيا ضاحكالي.. ولما وصله يسعدني بفكر في اللي يجرالي.. ينسيني

الوجود كله ولا يخطر على بالي.

فأجابها: إنت ما بينك وبين الحب دنيا.. دنيا ما تطولها ولا حتى في خيالك.

فأجابته مبتسمة: حيرت قلبي معاك.. حيرت قلبي معاك وأنا بداري وأخبي.. قولي أعمل إيه ويّاك.. ولا أعمل إيه ويا قلبي؟

فأجابها مبتسمًا أيضًا: اللي شفته قبل ما تشوفك عينيا.. عمر ضايع يحسبوه إزاي عليّ.. إنت عمري اللي ابتدا بنورك صباحه.. قد إيه من عمري قبلك راح وعدّى.

ضحكت عاليًا قائلة: لم أكن أعرف أني امرأة قوية سوى اليوم، عندما جئت ورأيتك. أتريد أن تنهي حياتك وأنت لا تزال في أوج شبابك وحيويتك؟ لماذا؟! لمرات قليلة تعثرت فيها ولم تنجح! لتجربة حب فاشلة مررت بها! لظلم الناس حتى ولو كانوا أقرب الناس إليك! اسمح لي أن أقول لك: كم أنت رجل مدلل! هل تعلم كم أنا عانيت في حياتي لأصل إلى هذه المكانة؟ هل تعلم كم مرة طعنت من الحاقدين والحاقدات؟ هل تعلم كم مرة تعثرت فيها لأكون أنا «الست» كما لقبتني الجماهير؟ لا أنكر أني ضعفت مرات كثيرة، خارت قواي أمام محاولات البعض لدفني تحت التراب، لكني لم أستسلم يومًا، بل بعد كل كبوةٍ كنت أقف بقوة وأغنّي بصدق، فتصفق الجماهير وتطلب مني أن أعيد، فأعيد وأعيد وأعيد، وما توقف صوتي يومًا.عشت للفن وبالفن، فهو من أضعفني وقوّاني، من خذلني ونصفني..

كنت أحيا وفي قلبي الله، فكان منصفي الأعظم. ستحيا وتخفق مرات، ثم تنجح نجاحًا يهز الأرض من تحت قدميك، فترتعد خوفًا من أن تموت قبل أن تحقق نجاحًا آخر يدوي صوته عما سبق. لا تيأس طالما الله حولك في كل مكان.. وإذا لم تخفق في الحب على الأقل ولو مرة، فاعلم أن حبك ليس صادقًا، محبوبك كان خيال ظل. افتح قلبك للحياة، تنفس نسمات بنكهة الأمل، عش يومك ولا تفكر في الغد.. ولا تنسَ أن تغني دائمًا أغنية «ودارت الأيام».

اختبأ بوجهه بين يديه وأخذ يبكي بصوتٍ عالٍ، ربتت بيدها على كتفه قائلةً: ستعيش لسنوات طويلة، ستموت في موعدك المحدد، لا تستعجله، دعه يأتي على مهلٍ، ولا تثير غضبه.. لن تستطع أن تتخلص من سجن الحياة بالموت.. عشها ثم ارحل، اعلم أنك ستمت بجسدك وسيظل اسمك يتناقله الناس فخرًا.

مسح دموعه عنه بطرف كمه الأبيض، الذي لم يعد أبيض بعد الآن. التفت جانبه، فلم يجدها، نهض يبحث عنها في أرجاء الغرفة، حتى أنه فتَّش عنها بالخارج. لم يعد لها أثر، رحلت من حيث أتت، لم يعلم كيف أتت وكيف رحلت. كل ما يعلمه أنه رآها وحدَّثها، بل أنها غنّت له وغنّى لها. فهو على يقين أن الست كانت تجلس على أريكته وبجانبه.. اختفت ولكن أثر عطر الست الذي يشبه رائحة الزمن الجميل ما زال يفوح في الغرفة.

استيقظ مفزوعًا من نومه، يتحسس نفسه ليتأكد أنه

ما زال حيًا، قفز من على الفراش، يتفحص وجهه بالمرآة، صفع نفسه عدة صفعات قائلاً: نعم أنا ما زلت حيًا. هرع إلى غرفة جدته، فوجدها جالسة أمام الشرفة وفي يدها سبحتها الخضراء تسبح عليها، فوقف حذاءها وسألها: جدتي.. أنا ما زلت حيًا الحمد لله؟ فابتسمت له قائلة: ماذا بك حبيبي؟ الله يطول عمرك ويحميك. قبّل يدها فتذكر قبلته لها الأمس.. الأمس.. ماذا حدث؟ عاد سريعًا إلى غرفته ضاربًا الباب خلفه، جلس في وسط الغرفة يسترجع تلك الليلة. أكان هذا حلمًا؟ نهض واقفًا وذهب نحو درج المكتب وفتحه، تحسس بيده داخله فوجدها مكانها.. علبة الأقراص الزجاجية. إذن فهي لم تنكسر.. إذن أنا حي.. إذن أنا كنت أحلم. فتّش عن الرسالة التي كتبها لمن يهمه الأمر فلم يجدها، فقط وجد صورة الرجل الذي يموت وهو يبتسم، على المكتب وحدها حزينة. جرى نحو الهاتف ووضع السماعة على أذنه، فوجد الهاتف معطلاً ولا يعمل. فتذكر أن حرارة الهاتف مقطوعة منذ أسبوع. انقطعت حرارة الهاتف، جاءته هو حرارة في جسده من حيث لا يحتسب.

جلس على الأريكة التي جمعته مع الست أم كلثوم، فهنا تحدثت إليه، ربتت على كتفه، غنت له وغنى لها. بثّت من روحها وعزيمتها في روحه، فأعطته أملاً جديدًا في الحياة، بثت فيه شوقًا للحياة، فلم يعد يريد أن يموت.. لا يريد أن يترك الحياة دون أن يفعل شيئًا.. سيحيا حتى تأتي لحظته وتأخذه وتذهب بعيدًا ولن

يعد أحد يراه.. لا أحد سيراه.

استحم سريعًا بماء بارد جدًا، ارتدى ثيابه، وضع عطرًا يثير الفضول ويثير أشياءً أخرى. فتح درج المكتب وأخذ الدفتر الذي جمع به كتاباته منذ عدة سنوات وحاول نشرها، لكنه أخفق عدة مرات وكلها لأمور بعيدة عن جودة المضمون. فكانت تروق كتاباته وتلفت انتباه من يقرؤها، لكن هناك اعتبارات كثيرة بعيدة عن الجودة. قبل أن يغادر الغرفة، ألقى نظرة على شجرة التوت، فابتسم قائلاً: تذوقتك بالأمس، فوجدتك أحلى مما كنت أتصور. قبل أن يشيح وجهه عنها، رأى شيئًا يتمايل على أحد أغصانها التي تتدلى بالقرب من النافذة، فاقترب نحو الشجرة ليرى عن قرب. وجد منديلاً أبيض من الحرير الناعم جدًا، هز الغصن فسقط المنديل بالقرب من قدميه، فتناوله بين يديه. كان مكتوب على المنديل «لسه فاكر» بحروف متناثرة. الغريب في الأمر أنه كان يتضوع من المنديل ذلك العطر.. نعم، عطرها هي ..عطر الست.

ابتسم ابتسامة عريضة وهز رأسه كأنه فهم ما يدور، انصرف مغادرًا ولوّح لجدته مؤكدًا أنه سيلتقي بها على الغداء. ألقى التحية على عم صميدة البواب وهو يصفر عاليًا، فارتسم وجه البواب بملامح تملؤها الريبة قائلاً: الله يحلي أيامك يا أستاذ رامي. ركب دراجته وانطلق على الطريق يسابق نسمات الهواء التي حامت حوله مبدية إعجابها الشديد به. فك سريعًا المنديل الحريري

الذي لفَّ به معصمه وقبّله، ثم تركه لنسمات الهواء تحمله عاليًا معها، فلعله يلقى حائرًا فيدلّه على الطريق.

صدر له في هذا العام أول رواية طويلة تحمل عنوان «منام الست»، حصدت جوائز أدبية عديدة، ثم توالت أعماله مثل: «أنا في انتظارك»، «يقظة القلب»، «القصر المهجور»، «أكتب لي»، «أهل الهوى»، «قصة الأمس»، «حانة الأقدار»، «ليلة حب»، «حديث الروح»... وغيرها.

كان دائمًا يستلهم أسماء رواياته من أسماء أغانيها، أحيانًا كان يستعين بأغانيها داخل الحوار عندما يتطلب الأمر. كانت دائمًا معه، في قلبه، عقله، فكره، قلمه.. حتى في منامه. كانت هي طوق النجاة التي أخذت بيديه لبر الأمان وحلم النجاح.. حتى وإن كان رآها فقط في حلمٍ، فيكفيه أنها اختارته هو وزارته في منامه لتمنعه عن فكرته التي كانت تداعب خياله كثيرًا.. كانت هي السيدة التي أخذت بيديه من حفرة اليأس، التي سقط بها ولم يلتفت إليه أحد.. لا أحد سوى الست.

تزوج من تلك المرأة الإسبانية التي قابلها مرة أخرى في زيارته الثانية لإسبانيا. عندما وقعت عيناه عليها هذه المرة، جرى نحوها وضمها إليه بقوة قائلاً بلغة إسبانية متعثرة، أحببتك منذ سنوات، كتبت عنك في دفتر ذكرياتي، كوني لي فأنا أحتاجك كثيرًا، شاركيني ذكرياتي، وعيشي حاضري، تأملي مستقبلي.. أحببتك يا فراشتي.. أحببتك يا طفلة يا مدللة، تحتسي الشوكولاتة

الساخنة، فتترك آثارها حول شفتيها الشهية.. أحببتك أنا منذ زمن.

رزق منها بابنتين توأم. عاشوا جميعًا بين مصر وإسبانيا، حتى أنه اعتبر إسبانيا بلده الثاني.

في تلك الليلة، بعد مرض لم يعانِ منه طويلاً، مات على فراشه في منزله الفخم في مصر، قبل أن تفارق روحه الحياة، وقفت حول فراشه زوجته وابنتاه، يبكين والدهما ويلقين نظرة عليه فربما تكون الأخيرة. في هذه اللحظة تعلقت عيناه بالصورة الزيتية المعلقة على الحائط، ابتسم للرجل الذي يتألم، كأنه يشد من حاله.. مات على سريره دافئًا، تاركًا خلفه ميراثًا أدبيًا كبيرًا وغزيرًا، خلدت أعماله اسمه حتى الآن. عاش حرًا ومات حرًا.

ويذكر أن آخر رواية له كانت تحمل عنوان «أغدًا ألقاك» انتهى منها قبل وفاته بشهرٍ واحدٍ.